العمل الخيري
وأثره في الإصلاح النّفسي والتّربوي
من منظور قرآني

بحث مشترك بين

د. فاطمة عبد الله عبد اللطيف صالح
و
د. زينب الأحمدي عبد الفتاح

ملخص البحث

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده،

تناول بحث "العمل الخيري وأثره في الإصلاح النّفسي والتّربوي من منظور قرآني"، من خلال الدراسة، أثر العمل الخيري في تربية النفس وتطهيرها من العلائق والأدران التي نالتها، حتىٰ خلصت من الأنانية، وطهرت من الشح والبخل، وتعويدها علىٰ البذل والعطاء، كما أنه يثري الكثير من القيم الإنسانية بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ فيلطف من الحقد والحسد، وكافة النوازع السيئة، ويقلل من آثارها المدمرة؛ فالزكاة – مثلا – ليست ممارسات شخصية بحتة، وإنما نظام اقتصادي متكامل، يؤثر عليه ويوجهه نحو الأفضل؛ مما يشيع جواً من الحب والرحمة بين أفراد المجتمع، ويعود بالنفع العام علىٰ الإنسانية.

كما تناول البحث دور العمل الخيري في الإصلاح التربوي؛ فهو حلقة من حلقات تربية النفس وتزكيتها؛ إذ يبعث روح الألفة والإحساس بالانتماء للمجتمع، ويجلب السعادة للآخرين بإخراج الزكاة والصدقات وفضائل الأموال. ودور العمل الخيري في الإصلاح التربوي يرتكز علىٰ قيم التدرج في عملية التغيير، ويجعل النقلة من ظلمات الجهل إلىٰ نور الهداية أمراً محققـًا، فالمنهج القرآني دعوة متكاملة لإصلاح الفرد تربويـًا، وتعديل سلوكه ومعتقداته، والتقليص من كافة الانحرافات السلوكية لديه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق فسوىٰ، وقدر فهدىٰ، والصلاة والسلام علىٰ نبي الرحمة، وقائد الأمة، الذي بلغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة؛ فكشف الله به الغمة، وجاهد في سبيل الله حتىٰ أتاه اليقين، ورضي الله عن صحابته الأبرار الأخيار، وعلىٰ من اتبع نهجه وسلك طريقه إلىٰ يوم الدين.

فللعمل الخيري دور بارز في إصلاح النفس وتربيتها، والعمل علىٰ تزكيتها، والقرآن الكريم بمثابة البلسم الشافي والدواء الكافي لعلاج ما علق من اعوجاج في النفس، ورفع مكانتها بالطاعات وفعل الخيرات لأعلىٰ درجات التكريم والتزكية، فتزكية النفس قيمة عليا لا تنفك عن قيمة التوحيد وقيمة العمران، وبين هذه القيم الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران، من وشائج التداخل والتكامل ما يقدم للإنسان صورة عن نفسه تمتلئ بالثقة والقدرة علىٰ تحقيق مقاصد الحق من الخلق. والمقصد الأعظم من التشريع الرباني لحياة الإنسان في هذا العالم، هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساده؛ فهو المسيطر علىٰ هذا العالم، وصلاح أحواله صلاح أحوال العالم، فعن التزكية التي يتحقق بها الإنسان في عقله ونفسه تنبثق سائر أفعاله وتصرفاته وأساليب حياته، ودون هذه التزكية يختل بناء العمران البشري كما أراده الله، وتتوجه حركة الحياة والحضارة في اتجاهات تصادم فطرة الإنسان، وينتشر الفساد، ويسود الظلم، وتنعدم العدالة، فتزكية النفس يترتب عليها فلاح الإنسان وصلاحه في

الكون والحياة، وفساد النفس يترتب عليه الخسران والبوار، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠].

وعليه، فالعمل الخيري له دور بارز في إصلاح النفوس وتربيتها وتزكيتها؛ فيسعد الإنسان في دنياه وآخراه، وتغدو روح الأخوة والمحبة والإيثار عالية في المجتمع المسلم. وهذا ما سوف نوضحه - بإذن الله - تعالىٰ - - من خلال هذا البحث المقدم بعنوان: "العمل الخيري وأثره في الإصلاح النّفسي والتربوي من منظور قرآني".

وقد اخترت العمل في هذا البحث للأسباب الآتية:

١-كون العمل الخيري يجسد صورة الإسلام الحقيقية.

٢- وهو أساس التعايش المجتمعي.

٣- يعمل علىٰ خلق فرص عمل جديدة تستوعب طاقة الشباب.

٤- يحد من البطالة المسببة لكثير من الأمراض الاجتماعية.

والهدف من وراء ذلك:

١-الحد من النزوع إلىٰ الفردية، وتنمية الحس الاجتماعي.

٢-مجاهدة النفس بفعل الخيرات وترك المنكرات.

٣-الوقاية من آفة اعوجاج النفوس، وإعطاء الصورة المشرقة لها بالتخلص من الأنانية وحب الذات.

٤-تسليط الضوء علىٰ طبيعة النفس الإنسانية وآفاتها، وعلاجها من خلال

آيات القرآن الكريم.

٥-الكشف عن أسرار ومعاني النفس الإنسانية، وعناية القرآن بها.

ومنهجي في البحث يقوم علىٰ المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وتتضح خطوات المنهج من خلال النقاط الآتية:

* قمت بجمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتعلق بموضوع البحث.

* شرح الآيات القرآنية شرحًا موضوعيًا، مع الاستشهاد ببعض الأحاديث المتعلقة بعناصر البحث.

* عزو الآيات القرآنية.

* تخريج الأحاديث من كتب السنة، والحكم عليها.

هذا، وقد اشتمل البحث علىٰ: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة. أما المقدمة، فبيّنت فيها أسباب اختياري للموضوع، والهدف من وراء اختياره، والمنهج الذي سرت عليه في هذا البحث. وأما التمهيد، فيدور حول "دلالة العمل الخيري".

وجاء المبحث الأول تحت عنوان: "دور العمل الخيري في الإصلاح النّفسي"، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تزكية النفس وتطهيرها.

المطلب الثاني: دور العمل الخيري في إثراء القيم الإنسانية.

وأما المبحث الثاني، فقد جاء تحت عنوان: "دور العمل الخيري في الإصلاح

التربوي"، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: دور التربية الإيمانية في غرس قيم الإنفاق.

المطلب الثاني: أثر العمل الخيري في الإصلاح التربوي.

وأما الخاتمة، ففيها أهم النتائج المستخلصة من البحث، وبعض التوصيات.

هذا، وسوف استقي بحثي - بإذن الله - من مصادر تفسيرية، ومن كتب الحديث، وأخرىٰ معاصرة.

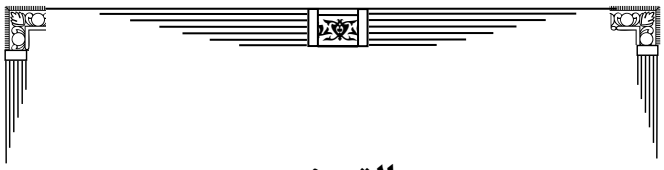

التمهيد

دلالة العمل الخيري

يشمل العمل الخيري كل طاعة لله، أمرنا بها القرآن، وحث عليها الإسلام، قال - تعالىٰ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧].

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ تعميم بعد تخصيص؛ إذ فعل الخير يشمل كل قول وعمل يرضي الله - تعالىٰ -: كإنفاق المال في وجوه البر، وصلة الرحم، والإحسان إلىٰ الجار، وغير ذلك من الأفعال التي حضت عليها تعاليم الإسلام"[(١)].

قال ابن عاشور: "أمر بإسداء الخير إلىٰ الناس من الزكاة، وحسن المعاملة كصلة الرّحِم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق"[(٢)].

فالآية الكريمة ذكرت أسباب الفلاح الأساسية، وهي: الركوع، والسجود، وعبادة الله، ثم فعل الخيرات. ففعل الخير مراتب، أولها وأولاها إصلاح ما بين العبد وربه من صلاة وسائر العبادات، ثم إصلاح ما بينه وبين الخلق من الإحسان

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٩/ ٣٤٦، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ.

(٢) التحرير والتنوير:١٧/ ٣٤٦ الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، ط: ١٩٨٤ هـ.

لهم، والشفقة عليهم في كل أعمال البر.

قال الرازي: "والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة، والعبادة نوع من أنواع فعل الخير؛ لأن فعل الخير ينقسم إلىٰ خدمة المعبود، الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله، وإلىٰ الإحسان، الذي هو عبارة عن الشفقة علىٰ خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة علىٰ الفقراء وحسن القول للناس، فكأنه – سبحانه – قال: كلفتكم بالصلاة، بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات"[(١)].

فالعبد يصلح ما بينه وبين ربه؛ حتىٰ يتسنىٰ له قبول أعماله الصالحة، فصلاح الاعتقاد يترتب عليه قبول الأعمال الخيرية.

قال ابن عاشور: "وفي هذا الترتيب إيماء إلىٰ أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم علىٰ الاشتغال بإصلاح الأعمال". [(٢)]

وطرق العمل الخيري كثيرة، وأبوابه متنوعة ومتعددة، وأعمال الخير والبر لا تفتح كلها للإنسان الواحد في الغالب، إن فتح له في شيء منها لم يكن له في غيرها، وقد يفتح لقليل من الناس أبواب متعددة. وليس أدل علىٰ ذلك من حديث أَبِي ذَرٍّ – رضي الله عنه –: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالُوا له: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: « أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ

(١) مفاتيح الغيب للرازي:٢٣/ ٢٥٤، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الثالثة – ١٤٢٠هـ

(٢) التحرير والتنوير: ١٧ / ٣٤٦.

صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ» (١).

ووجه الدلالة في هذا الحديث: ظن الفقراء أن العمل الخيري مقصور علىٰ بذل المال وإخراجه، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرَهم النبيّ - ﷺ - أنّ جميعَ أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة.

فالعمل الخيري واسعُ الميادين، شامل المفاهيم، يتسع ليشمل جميع الأعمال، سواء أعمالَ القلوب والجوارح من الأقوال والأعمال والمقاصد، في الظاهر والباطن، قال – تعالىٰ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

فخشية الله – تعالىٰ -، والإيمان به، ووجل القلوب، أعمال قلبية، يتنافس عليها أهل الخير من المؤمنين الصادقين، الذين وصفهم الله بهذه الصفات الحميدة.

والعمل الخيري يعود أثره وفضله علىٰ أهل الفضل والعطاء، قال – تعالىٰ -: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧].

قال ابن عاشور: "والرجاء المستفاد من ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٧، ح ١٠٠٦، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[البقرة:١٨٩] مستعمل في معنىٰ تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحدّ الموجب للفلاح فيما حدّد الله - تعالىٰ -، فهذه حقيقة الرجاء" [١].

(١) التحرير والتنوير: ١٧ / ٣٤٦.

المبحث الأول

دور العمل الخيري في الإصلاح النّفسي

وفيه مطلبان

❁ المطلب الأول: تزكية النفس وتطهيرها

❁ المطلب الثاني: دور العمل الخيري في إثراء القيم الإنسانية

المطلب الأول

تزكية النفس وتطهيرها

لم تختلف الرؤىٰ حول أمر من الأمور مثلما اختلفت حول النفس البشرية، وربما كان من نافلة القول أن عقيدة الإسلام تجاوزت العلم النظري إلىٰ تفاعل نفسي واجتماعي، وحولت المفاهيم والأفكار إلىٰ حركة وأفعال؛ فنظرت للنفس نظرة حية تلامس الواقع المتجدد، فأقرت اختلافها، وبينت أنواعها، وفصلت طرق معالجتها وترقيتها، والأهم أنها أنهت الخلاف المستمر حول إمكانية تغيير الطباع، فأكدت بما لا يدع – لمنحرف الفكر أو مقلد – اعتراضا علىٰ أن التسامي بالنفس إلىٰ الأحسن أمر ممكن؛ قال – تعالىٰ –: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٧-٨]. فقد بين الله – تعالىٰ– بهاتين الآيتين أن الإنسان مفطور علىٰ معرفة الخير والشر، وعلىٰ التمييز بينهما، "حيث ألهم كل نفس الفجور والتقوىٰ، ومعنىٰ ألهمها: عرفها حالها من الحسن والقبح، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكنها من اختيار أيهما شاءت، ثم ذكر ما تلقاه جزاء علىٰ كل منهما، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون:١] ، أي: قد ربح وفاز وظفر ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] أي: من زكىٰ نفسه ونماها وطهرها من المخالفات الشرعية، عقداً وخلقـًا وعملاً وقولاً، حتىٰ بلغت ما هي مستعدة له من الكمال العقلي والعملي؛ فتثمر بذلك الثمر الطيب لها ولمن حولها، وخاب وخسر نفسه، وأوقعها في التهلكة، من "دساها"، من حال بين نفسه وبين فعل الخير، وأخفاها بالفجور

ومجانبة البر والقربات"[1].

ولا شك أنه لا فوز أعظم من فوز النفس، ولا خسران أكبر من خسرانها، فكان من عظيم دعائه - ﷺ -: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[2].

لقد أقسم - تعالىٰ - سبع مرات علىٰ فلاح من زكىٰ نفسه؛ ترغيبا في تزكيتها، فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس:١-٧]، ولا يكون ذلك إلا بمجاهدتها وترويضها علىٰ مكارم الأخلاق، قال الإمام الراغب: "إن الله – تعالىٰ - خلق الأشياء علىٰ ضربين: أحدهما: بالفعل، ولم يجعل للعبد فيه عملا، كالسماء والأرض والهيئة والشكل، والثاني: خلقه خلقة ما، وجعل فيه قوة، ورشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله، وإن لم يرشحه لتغيير ذاته، كالنواة التي فيها قوة النخل، وسهل للإنسان سبيلا إلىٰ أن يزرعه – بعون الله تعالىٰ - نخلة، أو أن يفسده إفسادا، والخلق من الإنسان يجري هذا المجرىٰ في أنه لا سبيل لإنسان إلىٰ تغيير القوة التي هي السجية، وجعل له سبيلا إلىٰ إسلاسها "[3].

ومثل الإمام الغزالي بالغضب والشهوة "لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية، حتىٰ لا يبقىٰ لهما أثر، لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك، وصار ذلك سبب نجاتنا

(١) حدائق الروح والريحان: ٣٢/ ٤٢:٤٥.

(٢) صحيح مسلم: ٤ /٢٠٨٨ ح ٢٧٢٢، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ، ط: دار إحياء التراث العربي: بيروت.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني، ١٢٥.

ووصولنا إلىٰ الله – تعالىٰ –، فمن أراد – مثلا – أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقته أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطلب نفسه، ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه، حتىٰ يصير ذلك طبعا له، ويتيسر عليه؛ فيصير به جوادا، وكذا جميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بطريق المجاهدة"[1].

ولأن النفوس ليست علىٰ درجة واحدة، وقد جاءت في القرآن الكريم علىٰ ثلاثة أنواع: الأولىٰ: النفس المطمئنة في قوله – تعالىٰ –: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]،

مطمئنة "أي: هادئة موقنة بوجود الله ووحدانيته، مصدقة لما جاء به القرآن، عاملة له"[2]؛ الثانية: النفس اللوامة، قال – تعالىٰ –: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة:١ -٢]، تلوم علىٰ ما فات وتندم علىٰ الشر لم فعلته؟ وعلىٰ الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه[3]، وأخرج ابن أبي الدنيا قال: "المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ولا تراه إلا يعاتبها، أما الفاجر فلا يعاتب نفسه"[4]؛ و الثالثة: النفس الأمارة بالسوء، قال – تعالىٰ –: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٤٨.

(٢) ينظر الماوردي، ٦/ ٢٧٢، ط: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٤٢، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤.

(٣) البحر المحيط، ١٠ / ٣٤٣، ط: دار الفكر – بيروت.

(٤) التفسير بالمأثور للسيوطي، ٨ / ٣٤٣ ط: دار الفكر – بيروت.

مَا رَحِمَ رَبِّيۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]، الأمارة بالسوء المشتهية له[١]، وصاحبها يستجيب فيصير الشيطان قرينًا له، يحبب إليه المعاصي، ويكره له الإيمان.

والنفوس في تلك المنازل تتأرجح ولا تثبت علىٰ حال، إلا إذا أراد الله لها الثبات، فاليوم نفس أمارة بالسوء، وغداً نفس مطمئنة، فهي بين هبوط وصعود حسب استعدادها، عن ابن عباس و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَا: "الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ"[٢]، وهذا يجزم بإمكان تغير الطباع والعادات إذا ما توافرت الأسباب الداعية لذلك، وفي مقدمة هذه الأسباب العمل الخيري، ويتضح هذا من خلال دوره في:

❁ أولا: الوفاء بمتطلبات النفس:

لقد كانت دعوة إبراهيم – عليه السلام – وهو يضع قدمه في أرض الحرم، تاركًا ولده وزوجته وديعة به: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]. دعا – عليه السلام – بمجتمع تتوافر للإنسان فيه وسائل العيش الكريم، من غذاء وكساء وسكن وتزاوج، وقد تكفل – تعالىٰ – بتوفير هذه المطالب فقال – عز شأنه –: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود:٦].

---

(١) القرطبي: ٩/ ٢١١ ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٢٨ ح ٧٤، باب في الإيمان، وقال الألباني: ضعيف جدا، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

والدابة: اسم لكل حيوان ذي روح، ذكراً كان أو أنثىٰ، عاقلاً أو غيره، مأخوذ من الدبيب، وهي في الأصل: المشي الخفيف(١).

والرزق: كلمة عامة تعني العطاء، والعطاء الجاري، أو هو كل ما ينتفع به (٢) من طعام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨]. نادىٰ الله الناس جميعاً بأن يأكلوا مما في الأرض من لحم، وخضر، وفاكهة؛ لبناء أجسامهم ونقائها، وجعل حصول ذلك أمراً متيسرا لا صعوبة فيه، فالزارع يضع الحبة في الأرض ويتعاهدها، فإذا هي تنمو وتكثر بإذن الله ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]. كما نوع مصادره لضمان وفرته؛ فهذه ثروة زراعية ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢]، وهذه حيوانية ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [النحل:٥]، وتلك مائية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ [النحل:١٤]. ومن المقومات الرئيسة الكساء، وهو لستر العورة والتجمل، والحماية من الحر والبرد، قال - تعالىٰ -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾. وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ [النحل:٨١]. أما السكن، فقد بين الله - تعالىٰ - حاجة الإنسان إليه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل:٨٠]. وقد تعددت صوره؛ نظراً لضرورته، فمنه الجبال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ [النحل:٨١]،

(١) روح المعاني ١٢/ ٣.

(٢) المعجم الوسيط ١ / ٣٤٢.

والكهوف ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٦]، ومنه الملاجئ والمغارات ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٧]، ومنه النفق ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:٣٥]، ولا يستغنىٰ عنه في السفر ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠]. وصور - تعالىٰ - حاجة الإنسان إلىٰ الزواج وبناء الأسرة فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]، وقال - سبحانه -: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ﴾ [النساء:٢٥]، "فقد رخص الله - تعالىٰ - للأحرار، الذين يخشون الزنا، ولا يجدون ما يتزوجون به الأحرار، رخص لهم بالزواج من الإماء، وأرشدهم بألا يمنعهم من نكاحهن خوف المَعَرَّة، فإنما هم في النهاية جنس واحد ودينهم واحد"[(١)]، وهذا يؤكد علىٰ ضرورة إشباع هذه الحاجة؛ انطلاقا من كونها أحد الدوافع المساهمة في الحفاظ علىٰ الفرد المسلم وبقائه حيًا قادراً علىٰ القيام بدوره المنوط به، وهذا ما جعل فقهاء المسلمين يعدونه من صلب حاجات الكفاية وتمامها؛ ركونا إلىٰ قوله - ﷺ -: «من ولي لنا فلم تكن له امرأة فليتزوج امرأة، ومن لم يكن له سكن فليتخذ سكنا، ومن لم يكن له مركب فليتخذ مركبا، ومن لم يتخذ له خادما فليتخذ خادما»[(٢)].

(١) البحر المديد: ٢/ ٣١، ٣٢ بتصرف.

(٢) مسند أحمد: ٢٥/ ٥٤٦، ح ١٨٠١٧، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - =

"من الرائع حقاً أن يلتفت علماء المسلمين إلىٰ أن الطعام والشراب واللباس، ليست من حاجات الإنسان فحسب، بل في الإنسان دوافع وغرائز أخرىٰ تدعوه وتلح عليه، وتطالبه بحقها من الإشباع، ومن ذلك غريزة النوع أو الجنس، التي جعلها الله سوطاً يسوق الإنسان إلىٰ تحقيق الإرادة الإلهية في عمارة الأرض، وبقاء هذا النوع الإنساني فيها إلىٰ ما شاء الله. ولا عجب إذا قال العلماء أن من تمام الكفاية ما يأخذه الفقير ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح [(١)].

ويؤكد هذا الحكم فعل النبي - ﷺ - وتحمله لنفقة الزواج حين جاءه رجل فقال: «إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَإِنَّ فِي عُيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا». قَالَ: قَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهَا. قَالَ: «عَلَىٰ كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟» قَالَ: عَلَىٰ أَرْبَعِ أَوَاقٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - ﷺ -: «عَلَىٰ أَرْبَعِ أَوَاقٍ؟ كَأَنَّمَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ، مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ عَسَىٰ أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ». قَالَ: فَبَعَثَ بَعْثًا إِلَىٰ بَنِي عَبْسٍ بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِمْ"[(٢)].

وهذا دليل واضح علىٰ وجوب إعانة الدولة أفرادها علىٰ الزواج، وقد فعل ذلك عمر - رضي الله عنه - في خلافته" [(٣)]، وكذلك فعل عمر بن عبدالعزيز ذلك عندما أمر عماله بأن يصدقوا علىٰ كل من يريد الزواج ولا يملك الصداق[(٤)].

= ٢٠٠١ م.

(١) فقه الزكاة، ٢ / ٦٥٨.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ١٠٤٠ ح ١٤٢٤، كتاب النكاح، بَابُ نَدْبِ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ الْمَرْأَةِ وَكَفَّيْهَا لِمَنْ يُرِيدُ تَزَوُّجَهَا.

(٣) الأموال لأبي عبيد القاسم، ٤١٩.

(٤) السابق،٣٢٠.

وجدير بالذكر أن دعوة الإسلام بتوفير هذه الحاجات هي دعوة عامة للناس جميعـًا، المؤمن والكافر، المطيع والعاصي، يقول - تعالىٰ -: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]، فلم يحرم الكافر من الرزق مع غضبه عليه، ولم يخص به المؤمن مع حبه له، بل رزق الجميع، ولذلك حين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يخص المؤمن من ساكن البلد الحرام بالأمن والثمرات، جاءه الجواب الإلهي أن هذا ليس حكراً علىٰ المؤمنين، وإنما يتمتع به الكافرون مدة بقائهم في الدنيا، ثم يجزون علىٰ كفرهم في الآخرة، قال - تعالىٰ -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]. وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار النبي - ﷺ - بقوله: «الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ »[(١)]، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «الناس» ولم يقل «المؤمنون»؛ حتىٰ لا يحجب الكافرين، كما أفاد الحديث أن الشراكة بين الناس ليست وقفـًا علىٰ هذه الثلاث، "فالإشارة إلىٰ الموارد الثلاثة بالأسماء الواردة في الحديث، إنما هي إشارة إلىٰ مقومات الحياة الرئيسة في تلك البيئة الصحراوية في تلك المرحلة من تاريخ المجتمع الإسلامي. فإذا تبدلت البيئة، وتطورت المرحلة، انسحب حكم الشراكة علىٰ - مقومات الحياة الرئيسة - للعيش فيها أيضا"[(٢)].

(١) الحارث في المسند ١/ ٥٠٨ ح ٤٤٩، كتاب البيوع، باب الناس شركاء في ثلاث، ط: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة
الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣ -١٩٩٢.

(٢) أهداف التربية الإسلامية، ٢٨٠، المؤلف: د ماجد عرسان الكيلاني الأردني، الناشر: دار القلم.

وفي أيامنا هذه، وبالدخول في الألفية الثالثة، لاحظنا تغيراً أفرزته ظروف البلاد الاقتصادية؛ فعدد العاطلين منهم بالملايين، وكثير من العاملين منهم قلما يعمل بتخصصه، علاوة علىٰ ما قذفت به الحضارة من أنواع الأمراض المختلفة والأوباء التي لم نسمع عنها من قبل، وإذا كان من فضل هذا الزمن ما اكتشفه العلم من ألوان التغذية والعلاجات، فإن ما رمىٰ به من متطلبات الحياة قلبت كماليات الأمس لضرورات، فلم تعد المستشفيات المجهزة بأحدث الأجهزة والصيدليات الممتلئة بمختلف الأدوية، واستخدام وسائل التواصل الحديثة، وأخذ حصة كافية من الإنترنت، علاوة علىٰ امتلاك الأجهزة المتجددة، والتعليم بكافة أنواعه وأحدث تخصصاته، وكذلك مجاراة الزمان في الأكسية والأبنية والانتقالات، لم يعد ذلك ولا غيره – وهو كثير – فضلا يمكن التغاضي عنه، وإنما أصبح من أساسيات المعيشة التي لا يستغنىٰ عنها ومن الضرورات الواجب الوفاء بها، فالضرورات هي التي تتطلب الجهد الجاهد في تحصيل أسبابها، فإذا أخفق الإنسان فيما حاوله من الظفر بما يبتغيه منها فقد سعادته، وتنغصت معيشته؛ كل ذلك استوجب التعاون بين أفراد المجتمع، والتكافل فيما بينهم؛ فالحكومات كاهلها مثقل، ولا تستطيع الوفاء بحاجات المحتاجين، ومن ثم فالعمل الخيري قد بلغت أهميته مبلغاً عظيماً، حتىٰ إنه لتقام له المؤتمرات، وتوضع له الملصقات، وتصور له الإعلانات بكل ما تحمله من إبهار؛ لفتاً للأنظار، وتنبيها للأخيار، وما أبدعه – ﷺ – حين قال: «أَعْطُوا السَّائِلَ، وَإِنْ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسٍ»[1].

(١) موطأ الإمام مالك، ٢/ ١٧٥ ح ٢١٠٢، كتاب الصدقة، باب الترغيب في الصدقة، ط: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤١٢ هـ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٨٦) من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي =

أي: لا يمنعكم حسن مظهر السائل، وما يبدو عليه من مظاهر النعيم، أن تعطوه بما جادت به أنفسكم، فنحن نعلم قيمة الفرس في عهده - ﷺ - ودلالته علىٰ الثراء، فهو يعادل "سيارة" جيدة توحي بيسر صاحبها، فكأنه يقول: إن المحتاج ليس هو دائما من تراه مرقع الثوب أو حافي القدمين.. وفخر لديننا أن ينظر هذه النظرة الصائبة؛ ليسع مفهوم المحتاج فيه من يمتلك الركوبة والمسكن الذي يأويه، لكن لا تجاري معيشته الزمن الذي يحياه، فالعامل، طبيباً أو أستاذاً أو نجاراً أو حداداً، ولا يكفي ما يأخذه ليحيىٰ وأسرته في مستوىٰ يتناسب واحتياجات بيئته، هو في الإسلام يستحق البر به، والمحتاج في دول أوربية ليس كالمحتاج في دول عربية أو أفريقية؛ إذ مستوىٰ الحاجة يحدده مستوىٰ معيشة الغالبية، إذن، فالمستفاد بمفهوم الحديث وفقه الواقع أن الزمان يتغير ويتغير معه مساكينه.

❁ ثانيا: دور العمل الخيري في القيام بواجبات النفس:

اتفقت الرسالات السماوية جميعًا علىٰ ضرورة التوجه إلىٰ الله بالعبادة الخالصة، والعبادات هي الهدف من وراء الخلق ودعوة الرسل، قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وتأمين العمل الخيري

= صالح عن أبي هريرة به، ثم قال عقبه: ولعبد الله بن زيد بن أسلم من الحديث غير ما ذكرت قليل ليس بالكثير، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، علىٰ أنه قد وثقه غير واحد، وقال السخاوي في المقاصد (١/ ٥٣٧): وعبد الله بن زيد ضعيف.(ينظر التنوير شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ٢/ ٤٧٧ح ١١٥٧، لمؤلفه: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، ط: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م).

١ - الذاريات: ٥٦.

لحاجات النفس يمكن من العبادة وحسن الطاعة لله، قال – تعالىٰ – علىٰ لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام –:﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي النَّبِيَّ – ﷺ – إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَيُحَدِّثُنَا، فَقَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: « إِنَّ اللهَ قَالَ: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ »[(١)].

يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب مفسراً الآية: "الدعوة الثالثة، التي تمسك الإيمان في القلوب، وتمكّن له في النفوس، وهي لقمة العيش، التي إن لم يجدها الإنسان؛ هلك، وطار صوابه، وذهب إيمانه. فقول إبراهيم – عليه السلام – ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: لكي تنتظم حياتهم، وتطمئن قلوبهم، ويؤدّوا ما فرض الله عليهم من فرائض، كانت دعوة إبراهيم ربّه أن يجعل قلوب الناس تميل إلىٰ هذا المكان، وتنجذب إليه، وتتعاطف مع ساكنيه، فيكون لهم من ذلك رزق يرزقونه من تلك الأمم التي تجيء إليهم، وتلتقي بهم. ومضىٰ يقول: "وفي المجتمع الذي تتوافر للإنسان فيه وسائل العيش، ويجد في كنفه الأمن والسلام، في هذا المجتمع تخصب العواطف، وتزدهر المشاعر، وتتفتح البصائر إلىٰ كثير

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦/ ٢٣٧ح ٢١٩٠٦، وقال شعيب الأرنؤوط: وهذا سند ضعيف، هشام بن سعد ضعيف عند المخالفة، قال أحمد: لم يكن بالحافظ، وضعفه يحيىٰ بن معين وابن سعد والنسائي وغيرهم، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقوله: "إن الله – عز وجل – قال"، لا يدل علىٰ قرآنية هذا الكلام، وإنما هو من الأحاديث القُدسية التي يرويها النبي – ﷺ – عن ربه – عز وجل –. (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٤٥٣ المحقق: شعيب الأرنؤوط – الناشر: مؤسسة الرسالة).

من حقائق الوجود. وهنا يجد الإنسان وجوده الذي يستطيع أن يصله بالله، وأن يوثق صلته به، حين يجد الجو الذي يسمح له بالنظر والتأمل، وهو مجتمع النفس، مطمئن القلب. ومن هنا - أيضا - يستقيم للإنسان دينه، فيؤدي ما لله عليه من حقوق، لا تشغله عنها شواغل الحياة، ولا تذهله عنها مطالب العيش الملحّة، المهددة للحياة، ففي قول إبراهيم ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تعليل كاشف عن أن إقامة الصلاة، وما معها من واجبات مفترضة علىٰ المؤمن، إنما تجىٰء بعد أن يجد الإنسان وجوده علىٰ هذه الأرض، ويضمن لهذا الوجود بقاء واطمئنانا...!

فالإنسان مع الحرمان الشديد، ومع الجوع المهدد بالهلاك، لا يجد العقل الذي يعقل، ولا القلب الذي يخفق خفقات الوجد والشوق... فإذا عبد الله في تلك الحال، عبده وهو شارد اللّب خامد الشعور، ومثل هذه العبادة لا يجد فيها العابد ريح ربّه، ولا ينسم أنسام جلاله وعظمته"[1]. وذكر الإمام الرازي هذا المعنىٰ بقوله: "فَإِذَا كَانَ الْبَلَدُ آمِنًا، وَحَصَلَ فِيهِ الْخِصْبُ؛ تَفَرَّغَ أَهْلُهُ لِطَاعَةِ اللهِ - تعالىٰ -، وَإِذَا كَانَ الْبَلَدُ عَلَىٰ ضِدِّ ذَلِكَ؛ كَانُوا عَلَىٰ ضِدِّ ذَلِكَ"[2]، "هذا وليست كثرة المال ووفرة المتاع، بالتي تقيم الإنسان دائما علىٰ طريق مستقيم مع الله؛ إذ كثيرا ما يكون المال ووفرته سببًا في صرف الإنسان عن طريق الحق، وركوبه

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٧/ ١٩٣:١٩٢ المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، ٤٨/٤، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

طرق الغواية والضلال. ولكن الفقر القاهر والحاجة القاسية، أكثر صرفاً للإنسان عن الطريق السّويّ، إلا من عصم الله، وأمده بأمداد الحق والصبر"[1].

من هنا ندرك الحكمة في توفير ضرورات المعيشة للكافر؛ ذلك لأن توفيرها يهيئ له أن يتفرغ للتأمل في آيات الله وآثار قدرته؛ مما يكون سببا لهدايته، قال - تعالىٰ -: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، وقال - سبحانه -: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، فالناظر بعين الفكر لنفسه وما حوله سيصل إلىٰ حقيقة واحدة مفادها وجود خالق عظيم، وسيزداد المرء إيمانا بتقلب النظر ومعاودته المرة تلو الأخرىٰ. والإيمان وتعميق الشعور هو زاد النفس وجلاؤها، وطريقها إلىٰ الله والإقبال عليه، وسبيل انطلاقها من أسر الجسد وما ينوء بحمله من ماديات، فتحلق في ملكوت الله، وترتقي في مجال المعرفة والعبودية، وتلك غايتها.

والمتدبر للعبادات عموما، الواجبة منها والنافلة، يدرك أن أعظم أسرارها هو تربية النفس وتطهيرها من العلائق والأدران التي نالتها، والأعمال الخيرية لا تعين علىٰ أداء العبادات فحسب، وإنما تقوي علىٰ التمسك بها، وتحسن من أدائها، فلا ترىٰ قاضيا لحوائج الناس ممتنعاً أو متأففاً من إعطاء الزكاة، وإنما يخرجها بيسر وبوجه بشوش؛ إذ قد عوده العمل الخيري علىٰ البذل والعطاء والكرم والجود والقناعة والرحمة، حتىٰ خلصت نفسه من الأنانية، وطهرت من الشح والبخل.

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٧/ ١٩٤.

❁ ثالثاً: دور العمل الخيري في وقاية النفس من الانحراف الفكري والعقدي والسلوكي:

الفقر علة العلل؛ فما من مصيبة كائنة أو تكون إلا والفقر أساسها والأصل فيها، فلا يسرق السارق، ولا يقتل القاتل – غالبا – إلا لدفع غائلة الفقر، وإذا درت بنظرك يمينا وشمالا، وبحثت عن أسباب الانحرافات السلوكية والقلبية، لوجدت الفقر أساسها والداعي إليها، ومن ثم لا تستغرب استعاذة النبي – ﷺ – منه، والإكثار من الاستجارة بالله من ضره، حتىٰ قرنه بالكفر، فعَنْ مُسْلِمِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ»(١).

وقيام العمل الخيري بتأمين حاجات الإنسان الضرورية خير معين علىٰ مكافحة الجريمة، واجتثاث بذور التطرف الفكري والفساد الأخلاقي، وليس أدل علىٰ ذلك من قصة المتصدق الذي وقعت صدقته في يد من لا يستحقها في نظره ونظر المجتمع، فبين أرحم الخلق محمد – ﷺ – مدىٰ التأثير الإيجابي لتلك الصدقة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَىٰ سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَىٰ زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَىٰ زَانِيَةٍ؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَىٰ غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ،

(١) مسند أحمد: ٢٤/ ٥٢ح ٢٠٤٠٩، صحيح ابن خزيمة، ١/ ٣٦٧ ح ٧٤٧، بَابُ التَّعَوُّذِ بَعْدَ السَّلَامِ مِنَ الصَّلَاةِ، وقال الأعظمي: إسناده صحيح.

عَلَىٰ سَارِقٍ وَعَلَىٰ زَانِيَةٍ وَعَلَىٰ غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَىٰ سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ»[1].

والمجتمع الذي يعف أصحابه عن الفاحشة، ويتعاون أبناؤه علىٰ الخير، مجتمع تنتعش فيه النفس وتصفو، لذلك أوجب الله في الدين ما يحقق ذلك، فجعل للفقراء حقـًا في مال الأغنياء يأخذونه في حينه، قال – تعالىٰ – ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [المعارج:٢٤] حق يطالب الفقير به الغني كما يطالب بدين استحقه علىٰ غريمه، وليس فضلاً يتفضل به عليه، ويأخذه الفقير بمنة ومراآة... هذا الشكل الذي انتظمت به العلاقة بين الفقير والغني في الإسلام جدير بأن يقضي علىٰ بذور التطرف، ويحقق التوازن المنشود بين طبقتي المجتمع، ويضعف من الصراع القائم بينهما؛ فيسلم المجتمع من الأفكار الهدامة، ويُحمىٰ من السلوكات المنحرفة والنفوس المشوهة.

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١١٠ ح ١٤٢١، كتاب الزكاة ، بَابُ إِذَا تَصَدَّقَ عَلَىٰ غَنِيٍّ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، وأخرجه مسلم، ٢ / ٧٠٩ ح ١٠٢٢، بَابُ ثُبُوتِ أَجْرِ الْمُتَصَدِّقِ، وَإِنْ وَقَعَتِ الصَّدَقَةُ فِي يَدِ غَيْرِ أَهْلِهَا.

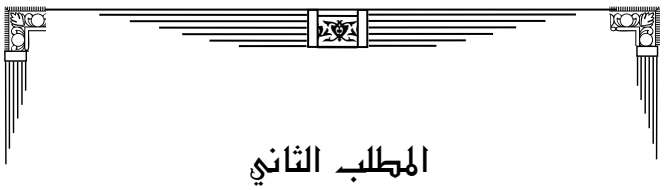

المطلب الثاني

دور العمل الخيري في إثراء القيم الإنسانية

لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو المعاصرة من قيم إنسانية، يحرص أبناؤها علىٰ الاستفادة منها، ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، والإسلام بواقعيته الملموسة وعقلانيته لم يهمل دروس السابقين لاختلاف المنهج وغلبة الأخطاء، وإنما أخذ محاسنهم وألقىٰ بمساوئهم، فحلف الفضول، الذي تم في الجاهلية، وكان هدفه مواساة الفقير ومناصرة المظلوم والإتيان بحقه، لم يكتف الإسلام بالإشادة به، وإنما جعل للفقير حقًا يؤخذ من خير مال القادر، وهو فرض يتعبد الغني بفعله، لا يخضع لهواه أو لمستوىٰ علاقته، قال - تعالىٰ -: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. فمهما يكن من عداوة أو إيذاء تسبب فيه الفقير، فليس للغني الحق أن يمنعه حقه، وإنما يدفعه إليه بكرامة، ودون أن يسأل الفقير أو يمد يداً، قال - تعالىٰ -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨]. فالإسهام الرئيس للإسلام ليس بناء وعي الإنسان بقيمة الزكاة، وإنما في صرف الزكاة صرفًا سليمًا بتجفيف منابع الشبهات التي تقضي علىٰ منعها أو النقص منها، وبانشراح الصدر لها والإقبال عليها، وبتصور حصادها في الآخرة. هذه الهيئة، التي اختارها الإسلام وأقرها،

تساهم بشكل فعال في إثراء القيم الإنسانية، والتي تظهر ابتداء من مسمياته وانتهاء بمضامينه، حيث سماه الله – تعالىٰ – صدقة، قال – تعالىٰ –: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]؛ تعبيراً عن صدق باذلها، وإعلانـاً بعدم قبولها مالم يرجو من إخراجها سوىٰ وجهه – تعالىٰ –، وسماها زكاة قال – تعالىٰ –: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠]؛ للتأكيد أنها سببٌ لنماء المال وصيانته، لا سببـاً لفساده ونقصه، وسماها إحسانا؛ ليتفق الشكل مع المضمون، قال – تعالىٰ –: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]. فحتىٰ يكتمل الثواب لا بد وأن تكون من أحسن المال وأطيبه، وبالطريقة التي ترضي آخذها، فالإحسان وصف للهيئة التي تخرج بها الصدقة، يقال: "أحسن الشيء: أجاد صنعه، والإحسان ضد الإساءة "[(١)]. ثم سماها خيراً؛ باعتبار ما ينتج عنها، قال – تعالىٰ –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧]. فالصدقة متىٰ استوفت شروطها، وخرجت بالصورة التي أراد الله – تعالىٰ – أن تكون عليها؛ لا بد وأن ترجع بالنفع العام، وتحقق السعادة والتواصل بين المرء وإخوانه، "فالخير: هو الحسن لذاته، وما يحققه من لذة أو نفع أو سعادة"[(٢)]. أما مضامينه، فكثيرة نذكر منها:

١- أنه يلطف من الحقد والحسد وكافة النوازع السيئة، ويقلل من آثارها المدمرة، فمهما حاول البعض من رصد فضائل للفقر، كحمله علىٰ التواضع

(١) المعجم الوجيز، معجم اللغة العربية، ص ١٥١.

(٢) المرجع السابق: ٢١٦.

وضعف المحاسبة، إلا أن القرآن الكريم قد حكم أنه بلاء، وأن الغنىٰ نعمة يمتن الله بها علىٰ عباده، قال - تعالىٰ -: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال - سبحانه -: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦].

ومنطوق الكلمة يعلن هذا بوضوح؛ حيث يدور معناها حول الكسر والنقص والاحتياج والعوز، "فَقُرَ الرجل ونحوه فَقْراً: كسر فقار ظهره، وافتَقَر إلىٰ الأمر: احتاج إليه "[1]، وحكماء العالم الحديث عندما حصروا أمهات الرّزايا ذكروا أنها الفقر والجهل والمرض، وإن كانت كلمة الفقر بمجردها تدل علىٰ الجهل والمرض، ويغني ذكرها عن التصريح بها، بخلاف ما تتضمنه من مساوئ أخرىٰ من الحسد والكذب والغيبة والنميمة والرياء واليأس والسرقة والقتل والذل والهوان، وصولاً للكفر ومخالفة الفطرة، فالفقر عامل رئيس في الوصول لكل ذلك، ولا ننكر أن تلك الصفات صفات بشرية توجد بنسب مختلفة في الخلق جميعاً؛ بحسب تكوينهم المادي والروحي الذي هو مناط التكليف، إلا أن الملتزم بشريعة الإسلام يمكنه تفادىٰ العديد منها، وعلىٰ أقل تقدير يعالج ما يحدث منها ويخفف من وطأتها؛ لأن الإسلام تفرد برسم المنهج الملائم لطبيعة الجسم والروح وواقع الحياة بلا تصادم، قال - تعالىٰ -:﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]. وقد أخبرنا ربنا - تبارك تعالىٰ - أنه خلق الناس طبقات، قال - تعالىٰ -: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٤٤٣، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

ويعلم أثر المال وفقده علىٰ كليهما، فالمال يمنح صاحبه عزة وكرامة وقوة، بخلاف الراحة وكثرة الأصحاب وتعظيم الناس، لكن يصاحبه شح وتقتير؛ خوف نفاده، أما قلته فإنها تثير العين وتهيج الحسد، وتنمي الغيبة والنميمة، وتدفع للكذب والنفاق والقتل والبغاء، إلا أن إيمان الغني بأن المال ليس خالصا له، وإنما هو مستخلف عليه، وإيمانه بأن لغيره حقًا فيه، وأن الإخلال بهذا الحق يعرضه للهلاك، وإيمان الفقير بأن ما يأخذه ملكًا مكتوبًا له، وليس في استرداده خجلاً أو فضلاً لأحد عليه؛ كل ذلك يجعل الغني حريصًا أن يرضىٰ عنه الفقير، وأن يقبل زكاته، ويجعل الفقير يأخذها بكل شموخ؛ لأنها إحدىٰ طرق الرزق الحلال التي كتبها الله له، هذا هو الشكل الوحيد الذي يجعل الود موصولاً بين الطرفين، فمن أين يأتي الحسد؟ وهو انفعال يشعر فيه الإنسان أن شخصًا آخر يمتلك شيئًا ما يتمنىٰ هو أن يمتلكه؛ حتىٰ يدفعه ذلك إلىٰ تمني وقوع الأذىٰ بالمحسود، كيف يتأتىٰ ذلك والفقير مؤمن بأن ما يحسده هو جزء من ماله؟ وكيف يظهر الرياء والنفاق والكذب، والفقير في قرارة نفسه وبحكم من دينه يطالب بملكه وليس بمعونة؟ ومن أين تتفشىٰ الجرائم، وتزكىٰ الفواحش، والغني يكفي الفقير ويسد رمقه، ويحافظ علىٰ حرمته؟ لا شك أن الإنفاق بهذا الشكل الذي وضعه الإسلام يلطف من الانفعالات السيئة، ويضعف من آثارها علىٰ السلوك، ويعالج ما ترسب بالنفس منها.

٢- يعلي قيمة العمل والإخلاص فيه؛ مما يدفع بعجلة التنمية إلىٰ الأمام، قال - تعالىٰ -: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. أشار - تعالىٰ - بهذه الآية إلىٰ غريزة التملك والاقتناء، وهي من أقوىٰ الغرائز في الإنسان، وسبيل التملك في الإسلام، وإن تعدد، فإن العمل أشهر طرقه، والحافظ الأمين عليه، وطبيعي أن يعمل الإنسان بإخلاص فيما يملكه أو فيما له به شراكة، ويجتهد في الإبقاء عليه وتنميته.

ولما اقتضت حكمة الله - تعالىٰ - في تعمير الكون أن تختلف طبقات الناس، من غني إلىٰ فقير، قال - تعالىٰ -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥]. فقد لزم ذلك بعض الحواجز النّفسية، التي تجعل أغلب العمال من الطبقات الفقيرة يهملون ولا يخلصون لصاحب العمل، خاصة إذا اتسم بالأنفة والجحود، إلا أن الإيمان بالقانون الذي وضعه الإسلام، والعمل به، يحول صفة الإهمال والتكاسل واللامبالاة إلىٰ العمل والجد والإخلاص، فالفقير متىٰ علم أن المال الذي بيد الغني له فيه شراكة، وأنه كلما زاد زادت حصته فيه، طابت نفسه، واستحالت نظرته من الغل والحسد إلىٰ الرضا والاطمئنان، وأصبح لزاما عليه مراعاة المال بإنمائه وحفظه من الهلاك.

هذا النظام هو الوحيد الذي من شأنه أن يحدث التوازن المطلوب بين طبقات المجتمع، وأن يحافظ عليه من التفكك والانفلات. ولقد أدرك المسلمون الأوائل قيمة هذا النظام، فما انتفع الإسلام بشخص بعد رسول الله - ﷺ - أفضل من أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في صدقه وإيمانه ونفاذ بصيرته، قال - ﷺ

-: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، بل بشيء وقر في صدره»[1]. فقد كان – رضي الله عنه – أصلب الناس فيما أمر الله، وهو في غير ذلك أرفق الناس بالناس، أعلنها حربًا علىٰ من امتنعوا عن أداء الزكاة، لا لشيء إلا لارتباطها بنظام مجتمعي ينهار إذا ما انهارت. ولقد استمر الأمر كذلك، وسار الخلفاء علىٰ نهجه؛ حتىٰ آتت الزكاة أُكُلَها في عهد عمر بن عبدالعزيز؛ فزالت المسكنة، وذابت الفوارق، حتىٰ كان الغني يخرج بزكاته فلا يجد من يأخذها منه. إن فريضة الإنفاق في الإسلام هي وصفة المسلمين للتعافي واستعادة العزة، وإن روحانية الإسلام لن تتضح ما لم يوجد عمل اقتصادي عادل، تتشارك فيه طبقتا المجتمع، فتنصهر أسباب الفرقة والتمايز بينهم. وهذا ما تحققه قوانين الإنفاق؛ فللمال – وخاصة أموال الصدقات – استراتيجية محكمة في الإسلام، وأوجه صرف محددة تتسم بالمرونة، وتخضع للتغيير حسب مقتضيات الزمان والمكان وحالة الأفراد، فالزكاة ليست ممارسات شخصية بحتة، وإنما نظام اقتصادي متكامل، يؤثر عليه ويوجهه نحو الأفضل، ومن ثم فإن رؤية الإسلام للواقع المعاصر لا تقبل بفوضىٰ الزكاة، وحرية الأفراد في التصرف فيها، وإنما الأولىٰ عنده أن تجمع الصدقات من الأفراد والمؤسسات، ومجموعها سيمثل رقمًا صعبًا، يستطيع المعنيون من المسلمين بالاقتصاد استخدامه في إنشاء المشاريع الضخمة ذات الأولوية الإنسانية والحضارية، التي بها يتغير وجه الحياة.

٣- يشيع جو من الحب والرحمة بين أفراد المجتمع؛ مما يعود بالنفع العام

(١) فيض القدير بشرح الجامع الصغير ٤/ ١٤٤ح ٤٨٢١، لمؤلفه: زين الدين محمد، المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، ط: المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥٦هـ.

علىٰ الإنسانية، والسؤال الذي يطرح نفسه علىٰ الساحة الآن: كيف تتضاعف أعداد الداخلين في الإسلام، والمفكرين والباحثين في شؤونه، رغم انكسار شوكة المسلمين وتفرقهم وهوانهم علىٰ القاصي والداني؟ والإجابة ترجع إلىٰ روح الدين وأخلاقياته؛ فهو في حقيقته رحمة ومحبة، رحمة كتبها الله علىٰ نفسه في الأزل للناس جميعا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وألزمها عبادة، وجعل نية الخير هي مؤشر الصلاح وقبول العمل، ومن اليقين أن الإنسان باستطاعته أن يعيش بلا تقنيات، بلا فضائيات، بلا طائرات، بلا مصاعد، بلا كهرباء، يستطيع أن يعيش بدائيا ، لكن لا يمكنه أن يعيش بلا أخلاق، بلا تضحية، بلا إخلاص، بلا ود، وبلا رحمة.. ويشتد احتياجه للحب والمودة وسعة الصدر كلما توغل في الحضارة، وأغرقت المادية تفاصيل حياته، وغشىٰ ضبابها حيزه الضيق، حتىٰ ضاقت روحه، وأصبح الود والإحسان منقذه، والإسلام أخص ما يميزه أنه أحيا الحرية والعدل، ونشر الرحمة والإحسان في كل ميدان من ميادين الحياة، نشرها مرتبطة بالمسؤولية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، ليست مسؤولية واحدة بل ثلاث: (الوحي والضمير والمجتمع).

فالمؤمن – حقيقة – عليه رقابة من دينه وضميره ومجتمعه، فإذا أخطأته واحدة فلن تخطئه الأخرىٰ، وهذا يفسر الإخفاق الشديد في تطبيق العدالة الاجتماعية، وهو المصطلح الذي شاع مؤخراً علىٰ ألسنة المثقفين، وتردد علىٰ ألسنتهم في كل ناد، باعتبارها الحل الأمثل لمشكلة الفقر، وما يترتب عليها من مشكلات، فعلىٰ الرغم من وجاهة الفكر وسلامة المنطق، إلا أن المشكلة قائمة، بل وتتفاقم يومـًا بعد يوم؛ لأن حلولهم لها حلول منسلخة عن الروحانية، بعيدة عن الأخلاق، فالفقر عندهم يعطل المسيرة الحضارية. أما الإسلام، فيعتبرها

مشكلة تؤرق الإنسانية، وشتان بين الفكرين وما ينبثق عنهما من حلول، فلا يكفي في الإسلام – مثلا – أن تظهر الود للضعيف، وتولي بمالك عنه، أو تتحدث في كل ساحة معبراً عن آلامهم، أو تعقد المؤتمرات لعرض مشاكلهم، أو تسود الصفحات تعبيراً عن معاناتهم، لكن لا بد أن تتألم لحاجتهم، وتجاهد يدك بعطائهم، ولسانك بالمعروف إليهم، وقلبك بالرحمة بهم، وهذا يفسر عدم التزام المسلم بإخراج ربع العشر عند الأزمات، بل يزيد عليها وقت الضرورة وانتشار الفقر. هذه هي حلول الإسلام، وهي في مجملها الأخلاق التي دعا لالتزامها، والتحلي بها، حتىٰ مع الأعداء، يقول – تعالىٰ – مبيناً أثر التعامل بالحسنىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، فالإحسان من شأنه تقوية العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وإحلال روح المحبة والود بدلا من التباغض والحقد والحسد، ومنح الأفراد والجماعات السعادة والأمن والاستقرار، وهي مطالب حياتية، ونحو هذه الآية قوله – سبحانه –: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شر النفوس المليئة بالحقد والكراهية، وتقلب العداوة والبغضاء إلىٰ محبة ووئام؛ مما يزيد في إثراء القيم الإنسانية. ويبين ابن القَيِّم أن المعاملة بالإحسان تنتهي إلىٰ أمرين كلاهما حسن، فيقول: "وكلما ازداد الإنسان أذىٰ وشراً وحسداً، وازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة؛ فهو في أحد حالين: فإما أن ينطوي تحت جناحك وتستعبده بإحسانك، وإما أن يقتل نفسه كمداً وحقداً، ويكون لك عليه من الله ظهير"(١).

(١) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، ص٣٢٨، الملاحي، عبد الرحمن بن يوسف بن عيسىٰ، ط: دار عالم الكتب – الرياض، ١٩٩٣.

علىٰ العكس، فإن الأخلاق السيئة من شأنها زلزلة كيان الأفراد، وإضعاف العلاقات الاجتماعية فيما بينهم، وسلبهم السعادة والاستقرار، وكسبهم - بدلاً منها - التناحر والاضطرابات والأمراض، حتىٰ تنتهي الأمر بتقويض المجتمع وانهياره.

ولقد أكد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع، قال - تعالىٰ -: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦].

فالباحث في تاريخ الحضارات، والدارس لطبيعتها وسنن قيامها وازدهارها، يتبين له أن جوهر الحضارة الأخلاق، وأن انسلاخ الحضارة عن المبدأ الأخلاقي سبب حتفها"[1].

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص ١٩٧، ١٩٨، لمحمد هيشور، ط: دار الوفاء، الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

المبحث الثاني

"دور العمل الخيري في الإصلاح التربوي"

يعد العمل الخيري حلقة من حلقات تربية النفس وتزكيتها؛ فهو يبعث روح الألفة والإحساس بالانتماء للمجتمع، ويجلب السعادة للآخرين بإخراج الزكاة والصدقات وفضائل الأموال. "ومنهج التربية والتزكية يقوم علىٰ الواقعية والعملية، لا علىٰ السلبية أو المثالية؛ فهو منهج التسديد والمقاربة، والقصد في الأمر كله، ومراعاة أحوال المكلفين، وتحقيق الملاءمة والمواءمة بين طبيعة هذا الدين وطبيعة المكلفين، فتكليف المندوبات والنوافل بحسب الوسع والطاقة، وأحب العمل أدومه وإن قل، والمؤمن يقول قليلا ويعمل كثيرًا. ومن الواقعية إدراك أن تفاوت القدرات إنما هو بسبب تنوع المواهب، واختلاف الاستعدادات؛ ذلك أن الله قسم الأعمال والأخلاق كما قسم الأموال والأرزاق، وعلىٰ كل أن يرضىٰ بما فتح له فيه، وأفضل الأعمال بعد الفرائض يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، ومن الناس من فتح له في كل باب، وضرب له في كل خير بسهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[(١)].

وينبثق العمل الخيري من عقيدة إيمانية راسخة، فالدين الإسلامي الحنيف سبق جميع المبادئ الوضعية في الدعوة للعمل التطوعي والخيري، وحث القرآن

(١) طريق الهداية: مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، ٩١: ٩٢، المؤلف: محمد يسري، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

الكريم والسنة والنبوية المطهرة علىٰ العمل التطوعي وتشجيع الأعمال الخيرية، فحث علىٰ التكافل، والتعاون، والتضامن، والصدقة، والزكاة والإحسان، والقرض الحسن، والإنفاق في سبيل الله، قال الشيخ الشعراوي - رحمه الله -: "وإن كان للواحد منا طاقة علىٰ العمل الخيري؛ فليعمل من خلال الدين الإسلامي. وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكون كل حياتنا للخير... إننا مكلفون بنسبة الخير الذي نقوم به إلىٰ ديننا؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه، وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلىٰ القيم حتىٰ يتسولها من الخارج، بل في دين الإسلام ما يغنينا جميعـًا عن كل هؤلاء. ولنقرأ قول الحق - سبحانه و تعالىٰ -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣][1].

ودور العمل الخيري في الإصلاح التربوي يرتكز علىٰ قيم التدرج في عملية التغيير، الذي تميزت به الأسس القويمة التي جاء بها القرآن الكريم، ينشئ واقعـًا جديداً، ويجعل النقلة من ظلمات الجهل إلىٰ نور الهداية أمراً محققـًا، لترتقي الأمة الإسلامية من الحضيض إلىٰ العلو والرفعة المنشودة التي رسم معالمها المنهج القرآني، وملاءمة توجيه المنهج القرآني للنفس الإنسانية من جهة، ومرونة هذا المنهج في أساليبه، وثباته في أسسه من جهة أخرىٰ، لتحقيق عملية التغيير، بذلك تبلغ الإنسانية أرقىٰ درجات السمو والكمال الإنساني، المتمثل في اتباع المنهج، "فالتربية الإيمانية أساس كل تغيير، ولا بد من تطبيقها، وليس لدينا خيار في هذا الأمر، لا بد من العودة العميقة، والمعايشة الحية مع إخوة الإيمان.. إن هذه التجربة، صنعت المعجزات، صنعت الجيل الأول، الذي تخلص من جاهلية جائرة، واستعلىٰ علىٰ ضغوط المجتمع وأعراف الآباء والأجداد.. ما أجدر الدعاة

(١) خواطر الشيخ الشعراوي، ٥/ ٢٩٠٨، ط أخبار اليوم، والآية من سورة فصلت: ٣٣.

اليوم أن يهتموا بتربية مدينة الرسول الله - ﷺ -، وأن يعلموا ثقل المسؤولية، وعظم الأمانة في هذا العصر. إن مسلم اليوم مهمته خطيرة؛ لأنه لا يطلب منه أن يكون مجرد مسلم عادي، إنما يطلب منه أن يكون نموذجًا يحتذىٰ، يلزمه تدريب من نوع خاص، يتعود فيه علىٰ التخفف من جواذب الأرض. والمطلوب لدور البناء والتأسيس: أن يكون المسلم علىٰ الدرجة العليا من الإيمان، المطلوب نماذج فائقة من البشر، تستطيع أن تتجرد لله، وأن تحتمل المشقة في سبيل الله"[(١)].

ودور العمل الخيري في الإصلاح التربوي يرتكز علىٰ قيم الاحترام والتعاون والتسامح، وجلب المنافع ودرء المفاسد، والالتزام بوسائل التربية الإيمانية، كما أمر ربنا وأوجب، قال - تعالىٰ -:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

يقول العز بن عبدالسلام: "هذه أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِلْحَثِّ عَلَىٰ الْمَصَالِحِ كُلِّهَا، وَالزَّجْرِ عَنْ الْمَفَاسِدِ بِأَسْرِهَا، فَإِنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ فِي الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ لِلْعُمُومِ وَالِاسْتِغْرَاقِ، فَلَا يَبْقَىٰ مِنْ دَقِّ الْعَدْلِ وَجُلِّهِ شَيْءٌ إلَّا انْدَرَجَ فِي أمره بالعدل، وَلَا يَبْقَىٰ مِنْ دَقِّ الْإِحْسَانِ وَجُلِّهِ شَيْءٌ إلَّا انْدَرَجَ فِي أَمْرِهِ بِالْإِحْسَانِ، وَالْعَدْلِ هُوَ التَّسْوِيَةُ وَالْإِنْصَافُ، وَالْإِحْسَانُ: إمَّا جَلْبُ مَصْلَحَةٍ أَوْ دَفْعُ مَفْسَدَةٍ"[(٢)].

إن توجيه الأنظار إلىٰ أهمية توجيهات المسيرة القرآنية في مواجهة التحديات

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ٢ / ٦٥، ٦٧.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٢/ ١٩٠، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، (المتوفىٰ: ٦٦٠هـ): الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة.

الإنسانية، والإشارة إلىٰ بعض الأسرار في آيات القرآن الكريم، لها واضح التأثير في النفس الإنسانية عامة، وفي النفس الإنسانية المستجيبة لمنهج الله علىٰ وجه الخصوص. وهذا ما سوف نوضحه من خلال مطلبي هذا المبحث:

المطلب الأول: دور التربية الإيمانية في غرس قيم الإنفاق.

المطلب الثاني: أثر العمل الخيري في الإصلاح التربوي.

المطلب الأول

دور التربية الإيمانية في غرس قيم الإنفاق

لقد كانت تربية الله لمجتمع الصحابة بكلامه، وبإرشاد رسوله - ﷺ - شاملة لجميع مناحي الحياة، في حالات السلم وحالات الحرب، فقد مروا باختبارات عملية تصهرهم بتجارب قاسية؛ لتخلق منهم الرجال الأشداء الأقوياء، الذين لا يهابون شيئًا إلّا الله، وجعل الله منهم رجالًا مؤمنين ونساء مؤمنات، من طبقة عالية في الصدق والأمانة ودماثة الخلق؛ فصاروا أمةً من أرقىٰ الأمم، لم يأت مثلهم في أمة سابقة، ولن يأتي مثلهم في أمة لاحقة، فكانوا بحقٍّ خير أمة أُخْرِجَتْ للناس"[1].

ودور التربية الإيمانية في غرس قيم الإنفاق يتحقق بتحقيق جملة من الأعمال الخيرية، وتتمثل في:

❁ أولا: البذل والعطاء:

البذل والعطاء: فريضة شرعية، وتربية إيمانية، حث عليها القرآن في كثير من آياته، قال - تعالىٰ -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

(١) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، ٧٢ المؤلف: كمال الدين عبد الغني المرسي، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣]، قال السعدي: "﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم... ففي هذه الآية، دلالة علىٰ وجوب الزكاة، في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمىٰ ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسىٰ منها الفقراء، بأداء ما أوجب اللّه فيها من الزكاة....وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكىٰ حتىٰ يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوىٰ أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف علىٰ إخراجها"[(١)].

فالآية الكريمة فيها دعوة لتطهير النفس وتزكيتها من خلال فريضة الزكاة. وقال – تعالىٰ – في آية أخرىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران:٩٢]، فقوله ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾ [آل عمران:٩٢] وافتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرّ إيذَان بأنّ شرائع الإسلام تدور علىٰ مِحْور البرّ، وأنّ البرّ معنىٰ نفساني عظيم، لا يخرِم حقيقته إلاّ ما يفضي إلىٰ نقض أصل من أصول الاستقامة النَّفسانيّة. فالمقصود من هذه الآيَة أمران: أوّلهما: التَّحريض علىٰ الإنفاق، والتّنويه بأنّه من البرّ؛ وثانيهما: التنويه بالبرّ الَّذِي الإنفاق خصلة من خصاله.... والبرّ كمال الخير وشموله في نوعه: إذ الخير قد يعظم بالكيفية، وبالكميّة، وبهما معـًا، فبذل النَّفس في نصر الدّين يعظم بالكيفية في ملاقاة العدوّ الكثير بالعدد القليل، وكذلك إنقاذ الغريق في حالة هوْل البحر، ولا يتصوّر في مثل ذلك تعدّد، وإطعام الجائع يعظم بالتعدّد، والإنفاق يعظم بالأمرين جميعـًا،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٣٥٠، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م.

والجزاء علىٰ فعل الخير إذا بلغ كمال الجزاء وشموله كان برّاً أيضـاً.... والمال المحبوب يختلف باختلاف أحوال المتصدّقين، ورغباتهم، وسعة ثرواتهم، والإنفاقُ منه - أي التّصدق - دليل علىٰ سخاءٍ لوجه الله - تعالىٰ -، وفي ذلك تزكية للنّفس من بقية ما فيها من الشحّ، قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وفي ذلك صلاح عظيم للأمّة؛ إذ تجود أغنيَاؤها علىٰ فقرائها بما تطمح إليه نفوسهم من نفائس الأموال؛ فتشتدّ بذلك أواصر الأخوّة، ويهنأ عيش الجميع"[(١)]. فالعبد لا يحصل علىٰ أعلىٰ درجات البر وكمال الخير وشموله إلا بإنفاق نفائس أموالهم، وبالتربية الإيمانية يكون البذل ويكون العطاء، قال - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج:١٩-٢٥]، "فهؤلاء بفضل التربية الدينية التي هذبت نفوسهم، ووصلت بالله أرواحهم؛ يجودون بالنفس والمال، ولا يتأخرون عن وجوه البر بأي حال"[(٢)].

وقال - تعالىٰ - مرغبا عباده المؤمنين في البذل والعطاء: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وهذا يعد تأسيسـاً للقلوب، وترغيبـاً للنفوس في البذل والعطاء، حيث شبه - سبحانه - ما يعطىٰ للمحتاج رغبة في الثواب بالقرض الذي سيكافئ الله - تعالىٰ -

(١) التحرير والتنوير: ٤/ ٥: ٦.

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، ٣ / ٤١٩، المؤلف: محمد المكي الناصري، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥ م.

صاحبه عليه بأضعافه من الخير والنعم"[1]. كما يجب علىٰ الغني أن يراعي شعور الفقير، فلا يعطيه الصدقة مشفوعة بمَنٍّ أو أذىٰ. ولقد حذر الحق – سبحانه – طائفة المؤمنين المحسنين من أن يفسدوا صنيعهم، ويحبطوا عملهم، بالمَنِّ والأذىٰ إذا أنفقوا وأحسنوا، فقال – تعالىٰ – تهذيبا لهم وتعليما: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢]. "والحكمة في ذلك أن المؤمن مهما كان فقيراً محتاجـًا، فإن حرمته عند الله عظيمة لا يسوغ امتهانها، وكرامته مصونة لا ينبغي انتهاكها، بل يجب علىٰ المسلم الموسر أن يصون ماء وجه أخيه المسلم المعسر، وأن يعامله معاملة كريمة لا تجرح عاطفته، ولا تؤذي شعوره، فذلك هو الإحسان علىٰ وجهه الشامل، والأدب الإسلامي الكامل." [2] وبذل المال وإنفاقه إحدىٰ دعائم المجتمعات الإسلامية المتماسكة؛ لذا حث عليه القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله – سبحانه -: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:٧]، "فالبذل والتضحية أول الدعائم في حياة الأمم، وأساس نجاح الدعوات، والإنفاق في سبيل الله للقيام بأعباء الأمة وما تتطلبه حياتها فريضة فرضها الإسلام، الذي هو النظام الإلهي والدستور السماوي، وهو حين يعالج مشكلة، يوقظ أولا الضمير، ويحيي الروح الديني، ويربط علاجه بالإيمان ورضا الله ورسوله. وكان الإسلام في مستهل حياته

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٤/ ٨١، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،١/ ١٧٢ المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولىٰ.

- ولا زال كذلك - في أشد الحاجة إلىٰ البذل والتضحية والإنفاق؛ ليسد حاجة المحتاج، ويلم شعث الدولة، ويدعم أركان الجيش"[1].

خلاصة ما سبق: أن البذل والعطاء دعوة قرآنية وتربية إيمانية، يعود أثره وثمرته علىٰ المجتمع المسلم، وتغدو روح المحبة والإيثار عالية، فتشتد أواصر الأخوة، ويهنأ عيش الجميع.

❁ ثانياً: الإيثار:

لقد كان للتربية الإيمانية أثرها الطيب في إعلاء قيمة الإيثار، وتعزيز جانب الروابط الإيمانية والمحبة والعطاء بين المسلمين عامة، وبين المهاجرين والأنصار خاصة، حيث قدم الأنصار لإخوانهم المهاجرين نموذجًا فريداً في المحبة والإيثار، وآثروهم علىٰ أنفسهم حبًا لا بغضًا، وطواعية لا كراهية، فكان ما فعله الأنصار مع إخوانهم المهاجرين نموذجًا إيمانيًا يحتذىٰ به إلىٰ قيام الساعة، فهناك فارق بين التربية الإيمانية و عادات الجاهلية والكفر، فقد عرض لنا القرآن الكريم صورة قوم آثروا فضل الله - تعالىٰ - ورضوانه علىٰ أموالهم وديارهم حين أخرجوا منها، وسلبوا حقهم، وآخرين جعلوا أموالهم وديارهم حقًا مشتركًا بينهم وبين إخوتهم في العقيدة، ثم صورة جيل آت بعدهم يترضىٰ عنهم ويستغفر الله - تعالىٰ - لنفسه ولهم، وهذه هي روابط الإيمان في أعلىٰ صورها، قال - تعالىٰ -: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

(١) التفسير الواضح: ٣/ ٦١٢، المؤلف: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة -١٤١٣ هـ.

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، يقول العلامة ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: "يقول - تعالىٰ - مادحًا للأنصار، ومبينًا فضلهم، وشرفهم، وكرمهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، ثم يقول - تعالىٰ -: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم، وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم"(١).

عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلَىٰ الوَلِيدِ قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ - ﷺ - الأَنْصَارَ إِلَىٰ أَنْ يُقْطِعَ لَهُمُ البَحْرَيْنِ، فَقَالُوا: لاَ إِلَّا أَنْ تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا، قَالَ: «إِمَّا لاَ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرَةٌ»(٢). ومع العطاء يكون الصفاء والنقاء، وخلو القلوب من الحسد والضغينة، قال - تعالىٰ -: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر:٩] أي: لا يحسدون المهاجرين علىٰ ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل علىٰ سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها"(٣). فالإيثار أعلىٰ درجات الجود والكرم، ولا يكون إلا ممن عَمرَ الإيمان قلبه، وتُوجت نفسه بالمحبة والعطاء؛ فبذل ما عنده من مال مع شدة حاجته إليه، قال - تعالىٰ -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، ٨/ ٩٨ط: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٩ هـ.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٣٣ ح ٣٧٩٤، كتاب فضائل الصحابة، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ - لِلْأَنْصَارِ: «اصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي عَلَىٰ الحَوْضِ»، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

(٣) تفسير السعدي: ٨٥٠.

خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. يقول الواحدي في سبب نزول هذه الآية: "عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: أتىٰ رجل رسولَ الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسَلَ إلىٰ نسائه، فلم يجد عندهن شيئًا، فقال النبي – ﷺ –: «ألا رجل يضيف هذا الليلةَ رحمه الله؟». فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فذهب إلىٰ أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله – ﷺ – لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم، وتعالَيْ فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلتْ، ثم غدا الرجل علىٰ رسول الله – ﷺ – فقال: لقد عجب الله عز وجل – أو ضحك – من فلان وفلانة، وأنزل الله – تعالىٰ –: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩][(١)].

وتلك صنيعة الإيمان، وتربية خير الأنام محمد – ﷺ –، فالتربية الإيمانية تضيء القلب، وتنير الفؤاد، وبهذا الضوء يجعل المؤمن يحس بآلام الآخرين وحاجاتهم. لقد اشتعلت شعلة الإيمان الصادق في قلب الرجل الأنصاري وزوجته، فآثرا ضيف رسول الله علىٰ نفسيهما، وعلىٰ أولادهما، وأطعما ضيف رسول الله – ﷺ –، وناما هما وأطفالهما جوعىٰ، فعجب الحق – تبارك و تعالىٰ – من صنيعهما؛ فأنزل الله فيهما قرآنًا يتلىٰ إلىٰ قيام الساعة. قال السعدي: "ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها علىٰ من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله – تعالىٰ – مقدمة علىٰ محبة شهوات النفس ولذاتها،... والإيثار عكس

(١) أساب النزول للواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل،٦٦٠، ط: دار الميمان، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ٦/ ١٤٨، ح ٤٨٨٩، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

الأَثَرة، فالإيثار محمود، والأَثَرة مذمومة؛ لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار فقد وقي شح نفسه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]. ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقي العبد شح نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهىٰ الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس، تدعو إليه وتطّلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، فهذان الصنفان، الفاضلان الزكيان، هما: الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين"[1]. خلاصة ما سبق: أن المنهج التربوي الفريد، الذي وضعه نبي الإسلام - ﷺ - حين آخىٰ بين المهاجرين والأنصار، فتعانقت قلوبهم علىٰ الصفاء والمودة، وتضافرت الجهود علىٰ عمارة هذه الدنيا، بالعمل الصالح الذي تتحرك به الحياة، لتصل الدنيا بالآخرة، وتحقق البشرية غايتها في هذا الوجود، وإذا ما استقر هذا الصفاء في الوجدان؛ فاض علىٰ الوجوه بِشْراً وأنساً، وعلىٰ الجوارح استقامة وهدىٰ، ويرقىٰ به الإنسان من درجة حب الخير للغير إلىٰ درجة الإيثار، التي يجود بمقتضاها بالإحسان لكل إنسان، دون انتظار لجزاء إلا من الله، ولقد تجلىٰ ذلك جلياً فيما كان بين المهاجرين والأنصار ومن نهج نهجهم واتبع طريقهم إلىٰ قيام الساعة.

(١) تفسير السعدي: ٨٥٠.

❁ **ثالثا: التكافل الاجتماعي:**

يعتبر العمل الخيري تجسيداً عملياً لفكرة التكافل الاجتماعي، باعتباره يمثل مجموعة من الأعمال الخيرية التي يقوم بها بعض الأشخاص الذين يتحسسون آلام الناس وحاجاتهم؛ الأمر الذي يدفعهم لتقديم التبرع بجهودهم وأوقاتهم وأموالهم لخدمة هؤلاء الناس؛ بهدف تحقيق الخير والمنفعة لهم. والقرآن الكريم رسم أسس التكافل الاجتماعي بين أفراد الأمة الإسلامية، عن طريق مشروعية الزكاة، ووجوب أدائها لمستحقيها؛ لما فيها من تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس، وإسعاد الفرد والجماعة، وإشاعة المودة والهناءة للجميع، "فالزّكاة – التي هي أشرف الأفعال المتعلّقة بالمخلوقين – تؤدّي إلىٰ تحقيق التّكافل الاجتماعي في الإسلام، وتساهم في حلّ مشكلة الفقر، ونفع الفقراء؛ ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزّكاة"[(١)]. فصلاح المجتمع وتقدمه، وترابطه وتماسك بنيانه، قائم علىٰ أداء هذه الفريضة، يقول صاحب المنار: "ثُمَّ إِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَبْذُلُ أَغْنِيَاؤُهَا الْمَالَ، وَتَقُومُ بِفَرِيضَةِ التَّعَاوُنِ عَلَىٰ الْأَعْمَالِ، فَيَكْفُلُ غَنِيُّهَا فَقِيرَهَا، وَيَحْمِي قَوِيُّهَا ضَعِيفَهَا؛ تَتَّسِعُ دَائِرَةُ مَصَالِحِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَتَكْثُرُ مَرَافِقُهَا وَتَتَوَفَّرُ سَعَادَتُهَا، وَتَدُومُ عَلَىٰ أَفْرَادِهَا النِّعْمَةُ، مَا اسْتَقَامُوا عَلَىٰ الْبَذْلِ وَالتَّعَاوُنِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَكُونُونَ بِذَلِكَ مُسْتَحِقِّينَ لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِيهَا. وَأَقُولُ: لَوْ سِرْنَا فِي الْأَرْضِ، وَسَبَرْنَا أَحْوَالَ الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ، وَعَرَفْنَا تَارِيخَ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ؛ لَرَأَيْنَا كَيْفَ مَاتَتِ الْأُمَمُ الَّتِي قَصَّرَتْ فِي هَذِهِ الْفَرِيضَةِ أَوِ اسْتُعْبِدَتْ، وَكَيْفَ عَزَّتِ الْأُمَمُ الَّتِي شَمَّرَتْ فِيهَا وَسَعِدَتْ، وَهَذِهِ

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٠/ ١٠٨ المؤلف: د وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ.

الْمُضَاعَفَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ تَكُونُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَقَامَتْ هَذِهِ السُّنَّةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهَا، وَإِعْزَازِ سُلْطَانِهَا، سَوَاءٌ أَكَانَ الْمُنْفِقُونَ فِيهَا يَبْتَغُونَ الْأَجْرَ عِنْدَ اللهِ - تعالىٰ - أَمْ لَا، وَإِنَّهَا لَمُضَاعَفَةٌ كَثِيرَةٌ لَا يُمْكِنُ تَحْدِيدُهَا، فَمَا أَجْهَلَ الْأُمَمَ الْغَافِلَةَ عَنْهَا وَعَنْ حَالِ أَهْلِهَا، إِذْ يَرَوْنَ أَهْلَهَا قَدْ وَرِثُوا الْأَرْضَ وَسَادُوا الشُّعُوبَ؛ فَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا مِثْلَهُمْ، وَلَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَكُونُ كَذَلِكَ!"[1].

فلا يحيا مجتمع من المجتمعات إلا بالتكافل والتعاون فيما بينهم علىٰ البر والتقوىٰ، قال الشيخ الشعراوي: "وهذا نوع من التكافل الاجتماعي لا بد أن يكون موجودا في المجتمع، حتىٰ يتكافل المجتمع كله، فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا، ويأتيك من رجل غني ما يعينك علىٰ حياتك؛ فإنك ستتمنىٰ له الخير؛ لأن هذا الخير يصيبك، ولكن إذا كان هذا الغني لا يعطيك شيئا، هو يزداد غنىٰ وأنت تزداد فقرا؛ تكون النتيجة أن حقده يزداد عليك"[2]. وقال - رحمه الله - عند قوله - سبحانه -: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦] يُهادي أقرباءه ويهادونه. والحق - سبحانه و تعالىٰ - يريد أن يُشيعَ في المجتمع روح التكافل الاجتماعي"[3]. ولو تقاعس مجتمع من المجتمعات عن أداء هذه الفريضة كما أمر ربنا وأوجب؛ كان شراً ووبالاً علىٰ المجتمع بأسره، وفتنة عارمة لا يسلم منها أحد، فالبخل والشح داء مدمر للأمة، ومعوق نهضتها،

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ٢/ ٢٧٠ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

(٢) الشعراوي ١/ ٤٣١. (وربما الأصوب ليناسب السياق أن تكون العبارة "..أن حقدك يزداد عليه").

(٣) الشعراوي، ١٤ / ٨٤٧١.

ومقوض بنية عزتها وكرامتها. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران:١٨٠]، "أي: لا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم، بل هو شر لهم؛ لأنهم ببخلهم يعرّضون أموالهم للضياع والتلف والسرقة وغيرها، ويضرون أمتهم لتقصيرهم بما يجب عليهم من التكافل الاجتماعي والتعاون للقضاء علىٰ ظاهرة الفقر، والفقر يضر بالأمة جمعاء، وحياة الأمم متوقفة علىٰ بذل النفس والمال"(١).

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»(٢). ويفهم من الحديث الشريف أن الشح سبب لهلاك الأمم السابقة، وبمنع الزكاة يكون الشح، ويزداد الفقر في طبقات المجتمع؛ فيحقد الفقير علىٰ الغني، وتنتشر الجرائم كالسرقة والحرابة والمتاجرة بالأعضاء البشرية، ويتحول المجتمع إلىٰ غابة؛ فلا يأمن الرجل علىٰ بيته وماله وولده، وتفادياً لتلك المرحلة؛ يجب التكاتف بين أفراد المجتمع؛ حتىٰ يتسنىٰ لهم العيش في أمن وأمان، وينعم الجميع تحت مظلة الترابط والتعاون علىٰ فعل الخير وبذل ما في الطاقة والوسع، وإن كان قليلا؛ "فبذل القليل من الأفراد والجماعات إذا اجتمع صار كثيرًا، ومن ثم كانت الأمم الراقية تقيم مشروعاتها النافعة للأمة في الزراعة، والصناعة، أو في بناء الملاجئ والمستشفيات، بالتبرعات القليلة التي تؤخذ من أفرادها، وبذا تقدمت في سائر فنون المدنية،

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٤/ ١٨٣.

(٢) صحيح مسلم، ٤/ ١٩٩٦ ح٢٥٧٨، كِتَاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

والحضارة. ولذا؛ حث الله – تعالىٰ – علىٰ بذل الخير، ولو قليلًا، بقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧][(١)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض بلاد المسلمين تمر بأزمات اقتصادية طاحنة، وانتشر الفقر بين طوائف الناس في تلك الشعوب؛ وهذا يستوجب علىٰ القائمين علىٰ تلك البلاد أن يجدوا حلاً ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلا، وذلك بتفعيل التكافل الاجتماعي؛ تأسياً بالحبيب المصطفىٰ – ﷺ –، فقد حرص علىٰ توفير الماء المملوك للدولة الإسلامية، فالماء سلعة إستراتيجية، ولن تقوم دولة بلا ماء، "فعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا فِي قَتْلِ عُثْمَانَ، وَقَالَ: فَإِذَا عَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأَنَا كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ عُثْمَانُ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ: «مَنْ يَبْتَاعُ بِئْرَ رُومَةَ غَفَرَ اللهُ لَهُ»، فَابْتَعْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا وَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: قَدِ ابْتَعْتُهَا بِكَذَا، قَالَ: «اجْعَلْهَا سِقَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَجرُهَا لَكَ». قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ"[(٢)].

كانت بئر رومة ملكًا ليهود، فابتاعها عثمان بن عفان – رضي الله عنه –، ثم ذهب إلىٰ رسول الله – ﷺ – وقال له: (يا رسول الله، ابتعتها بكذا وكذا، فقال – ﷺ –: اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك، فقال: اللهم نعم). إن عثمان بن عفان – رضي الله عنه وأرضاه – اقتصادي إسلامي كبير، وجه جهده كله لشراء ما

(١) تفسير المراغي ٤/ ٧٠ ـ المؤلف: أحمد بن مصطفىٰ المراغي، ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولىٰ.

(٢) صحيح ابن خزيمة، ٤/ ١١٩ ح ٢٤٨٧، جُمَّاعُ أَبْوَابِ الصَّدَقَاتِ وَالْمُحْبَسَاتِ، بَابُ إِبَاحَةِ حَبْسِ آبَارِ الْمِيَاهِ – قال الأعظمي: إسناده حسن لغيره، ط: المكتب الإسلامي – بيروت.

ينفع الأمة ويفيدها، بدلاً من التجارة في شيء من الرفاهيات أو الكماليات، وهذا كان بتوجيه من الرسول - عليه الصلاة والسلام -، يوجهه لشراء السلع الإستراتيجية، ومن هذه السلع الإستراتيجية الماء. إنها التربية الإيمانية في بناء الأمة الإسلامية، فالرسول - ﷺ - لا يملك شيئًا دنيويًا يعوض به عثمان بن عفان عن الماء الذي اشتراه، ولا يتوقع أن يشتري المسلمون منه ذلك الماء؛ لأنهم فقراء، لذلك فإنه حفزه بما في الآخرة، قال له: «من يبتاع بئر رومة ويغفر الله له»، وفي رواية «وله الجنة»، ولو لم يكن إيمان عثمان بن عفان - رضي الله عنه وأرضاه - يقينيًا في الله - عز وجل - وفي رسوله الكريم - ﷺ - وفي الجنة والنار؛ لما هان عليه أن يدفع آلاف الدراهم دون عائد دنيوي، ولم يكن لهذه المشكلة أبداً أن تحل دون تطوع من اقتصادي مسلم غني يرغب في ثواب الآخرة؛ لأن بيت مال المسلمين لم يكن فيه مال. وما أحوجنا في هذه الأيام العصيبة في مجتمعاتنا إلىٰ هذه الفضيلة (التكافل الاجتماعي)، الذي هو شعبة من شعب الإيمان، فقد عز وجوده في مجتمعاتنا، وعشرات، بل مئات، بل آلاف الأسر المسلمة ينامون جوعىٰ، وجيرانهم ينامون متخمين بالطعام والشراب. ألا ما أحوجنا إلىٰ التكافل والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ؛ لنقيم مجتمعًا قويًا متماسكًا، يسوده الحب والإخلاص، مقتدين بسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين؛ فرضي الله عن عثمان، وعن الصحابة الذين تربوا في مدرسة النبوة؛ فكانوا منارة للإسلام والمسلمين، ولقد سطر التاريخ سير العظماء بحروف من نور، ومعين الأمة المسلمة في هذا الجانب لا ينضب أبداً؛ فالخير في أمة الإسلام إلىٰ قيام الساعة.

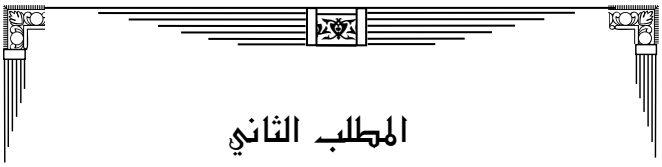

المطلب الثاني

أثر العمل الخيري في الإصلاح التربوي

يعد المنهج القرآني دعوة متكاملة لإصلاح الفرد وتعديل سلوكه، واتجاهاته وأفكاره ومعتقداته، بل ونظرته للحياة، ويلمس هذا الهدف في كل آية من آيات القرآن الكريم؛ حيث غير القرآن الكريم سلوك الوثنية إلىٰ التوحيد، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، ومن الظلم والطغيان إلىٰ الطاعة والالتزام، والمنهج الرباني استطاع أن يعدل كثيراً من العادات والتصرفات السيئة، التي كانت منتشرة قبل بزوغ فجر الإسلام، وقبل بعثة النبي - ﷺ -، من شرب الخمور، والربا، وغيرها من العادات السيئة. وفي وقتنا الحالي ازدادت الحاجة لأساليب لتعديل السلوك تتناسب وواقع المجتمع الإسلامي، وتتوافق مع هويتنا الدينية والثقافية، ولا شك أن القيام بتعديل السلوك الإنساني يعود بالنفع علىٰ سلوك الفرد، وفيه صلاح المجتمع؛ لذا يحتاج المربي إلىٰ جهد عظيم؛ لأنه يتعامل مع فئات كثيرة من الأشخاص تختلف ميولهم وصفاتهم وقدراتهم واتجاهاتهم. وفي وقتنا الحاضر ازدادت أهمية تفعيل أساليب تعديل السلوك، خاصة المستنبطة من المنهج القرآني وديننا الحنيف، والعمل الخيري له دور بارز في تقويم الانحرافات السلوكية عن طريق المنهج القرآني، الذي يعد دعوة متكاملة للإصلاح التربوي، فأهم مفاهيم تعديل السلوك في التربية الإسلامية هي: تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، كما أن التربية الإسلامية راعت عند تعديل السلوك الإنساني الجانبين المادي والروحي، ومن أهم وسائل تقويم الانحرافات السلوكية وتعديل السلوك يكون من خلال:

التربية بالوعظ والنصيحة، التربية بالعادة، التربية بالعقوبة، وذلك علىٰ سبيل المثال لا الحصر.

❁ أولاً: التربية بالوعظ والنصيحة:

التربية بالوعظ والنصيحة منهج قرآني، وتربية إيمانية من لدن حكيم خبير؛ قال – تعالىٰ –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، "فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم؛ لأنه هو الذي خَلَق من عَدَم، وأمَدّ من عُدْم، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط، بل شملت نعمته كل الخلق"(١). وقال – سبحانه –: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، "وإن كتابًا هذا شأنه، يجب أن يُقْبِل كل إنسان علىٰ تدبر ما فيه وفهم مراميه؛ لأنه دائمًا يهدي للتي هي أقوم، فهو يضم كل أصول التربية"(٢). والعمل الخيري له أثره الطيب في تقويم الانحرافات السلوكية، من خلال التربية بالوعظ والنصيحة، ولقد ضرب النبي – ﷺ – أروع الأمثلة التطبيقية في ذلك، "فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ – ﷺ – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا». قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ

(١) خواطر الشيخ الشعراوي، ١٠/ ٦٠٠١.

(٢) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، ص٤، المؤلف: كمال الدين عبد الغني المرسي، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الطبعة: الأولىٰ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

لِأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ"[1]. ففي هذا الحديث الشريف طلب شاب من النبي - ﷺ - أن يرتكب كبيرة من الكابر، وهي كبيرة الزنا، وقد هال ذلك الأمر الصحابة؛ لهول ما قال، فقاموا بزجره، لكن النبي - ﷺ - رفق به ووعظه، بقوله - ﷺ -: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»...إلخ، وقد أثّر ذلك في نفس الشاب، وقال: "فوالله ما همتْ نفسي بمعصية من ذلك النوع إلّا ذكرت أن يفعل بأمي أو بزوجتي أو بابنتي؛ فأمتنع".

ويظهر أثر العمل الخيري في التربية الإيمانية بالوعظ والنصيحة في هذا الحديث الشريف، فالنبي - ﷺ - لم يوبخ الشاب أو يعنفه، بل قدم له الوعظ والنصيحة، بالكلمة الطيبة الحانية الرقراقة، ودعا له بالخير؛ فالكلمة الطيبة صدقة، "عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قال: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[2].

هكذا أدَّبَ الله صحابة رسول الله -ﷺ-، وهكذا أدَّبهم رسول الله - ﷺ - بسنته وموعظته؛ حتىٰ أصبحوا مجتمعًا له عقيدة تختلف عن كل العقائد التي توارثوها عن الآباء والأجداد، مجتمعًا يستمد عقيدته من السماء، مجتمعًا ربانيًّا ينبثق فيه التعامل مباشرة من الإيمان بالله - تعالىٰ - والتحاكم إلىٰ شرعه، وصار هناك مفهوم جديد لمن تربىٰ بهذه التربية، هذا المفهوم يطرح القبلية والعنصرية،

(١) مسند أحمد، ٣٦ / ٥٤٥ح ٢٢٢١١، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ١١، كتاب الأدب، بَابُ طِيبِ الكَلاَمِ.

ويقبل علىٰ الناس جميعهم بروح المساواة والعدالة: إنه الإنسان العالمي، الذي يشعرنا بالانتماء إلىٰ الأسرة الإنسانية كلها، من واقع ما عرفه من دين الله، الذي يدعو إلىٰ التعارف والتآلف، ويأمر بالعدل والإحسان وتقديم الخير للبشرية، ويحقق السعادة للناس جميعًا؛ أسودهم وأبيضهم، وأحمرهم وأصفرهم، فالكل يتساوىٰ أمام نظرة هذا الإنسان الجديد، الذي لا تميزه عنصرية، ولا يحجبه عن الناس شيء[1].

❁ ثانياً: التربية بالعادة:

العمل الخيري له أثره الطيب في تقويم الانحرافات السلوكية، من خلال التربية بالعادة، والتي تعد من أنجح الوسائل في تقويم السلوك الإنساني، "والإسلام يستخدم العادة كوسيلة من وسائل التربية، وذلك عن طريق تحويل الخبرة والقيم الثابتة إلىٰ عادات يقوم بها الفرد دون مجهود. ويقوم المنهج الإسلامي في التغيير الاجتماعي علىٰ إثارة الوجدان، وبعث الرغبة في العمل وتكوين الميل، ثم تحويل الرغبة والميل إلىٰ عمل وسلوك واقعي؛ فيتطابقان. ولنأخذ الصلاة مثالاً، فالصلاة تتحول بالتعود إلىٰ عادة ثابتة تلح علىٰ الإنسان ولا يستريح حتىٰ يؤديها، ويسري ذلك علىٰ الصوم والزكاة، وكل الآداب وأنماط السلوك الإسلامي"[2]، فعَنْ يُونُسَ بْنِ مَيْسَرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - قَالَ: «الْخَيْرُ عَادَةٌ، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ، مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي

(١) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، ص٧٢، المؤلف: كمال الدين عبد الغني المرسي، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الطبعة: الأولىٰ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) التربية الإسلامية: أصولها ومنهجها ومعالمها، المؤلف: عاطف السيد، ٥٩، الناشر: حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

الدِّينِ»[1]. ففي هذا الحديث الشريف يظهر أثر ودور العمل الخيري في التربية الإيمانية بالعادة، حيث جعل النبي - ﷺ - فعل الخير مقرونًا بالعادة فقال: "(الخير عادة) أي المؤمن الثابت علىٰ مقتضىٰ الإيمان والتقوىٰ، ينشرح صدره للخير؛ فيصير له عادة؛ ذلك لإن الإنسان مجبول علىٰ الخير، قال الله - تعالىٰ - ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]. وأما الشر، فلا ينشرح له صدره؛ فلا يدخل في قلبه إلا بلجاجة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، واللَّجَاجَةُ: الخصومة"[2]. فالمسلم إذا أراد أن يتخلص من صفة البخل - مثلاً - يجب علية محاكاة الكريم فيما يفعله؛ فيجاهد نفسه بإخراج المال وإنفاقه علىٰ سبيل التكلف، ويواظب علىٰ ذلك، حتىٰ يصبح الإنفاق له عادة يأتيها بسهولة ويسر، دون تكلف، ثم يرتقي إلىٰ أعلىٰ درجات الكرم والجود؛ حتىٰ يصل إلىٰ درجة التذوق الإيماني، وهي درجة عالية لا يصل إليها إلا أهل الفضل والإحسان من الأنبياء والصالحين، "فعَنْ أَنَسٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[3].

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان،٢/ ٨ ح ٣١٠، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣، وأخرجه ابن ماجه في سننه، ١/ ٨٠ ح ٢٢١، بَابُ فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَىٰ طَلَبِ الْعِلْمِ، ط: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٨٠.

(٣) مسند أحمد: ١٩/ ٣٠٥ ح ١٢٢٩٣، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل سلام أبي المنذر، وهو ابن سليمان المزني القارىء، وهو غير سلام بن أبي الصهباء العدوي المكنىٰ أبا بشر، فقد فرق بينهما البخاري وابن أبي حاتم والعقيلي، وخالفهم بذلك ابن عدي في "الكامل" =

يقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله –: " أمّا الخُلُق العظيم، فمعناه الخُلُق المضبوط بالقيم، وخُلُق رسول الله – ﷺ – مضبوط بالقيم؛ حتىٰ صار مَلَكةً وليس أمرًا افتعاليًّا. وحين يقول الناس عن إنسان إن خُلُقَه الكرم، أي: تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة، وفي أعمال المعاني نسميها خُلُقًا، وفي أعمال المادة نسميها آلية"(١).

❁ ثالثاً: التربية بالعقوبة:

العمل الخيري له أثره الطيب في تقويم الانحرافات السلوكية من خلال التربية بالعقوبة، حيث يقي المجتمع من انتشار الجرائم، ويقضي علىٰ الفساد من خلال العقوبة الرادعة، فالعقوبة رحمة لجميع أفراد المجتمع، بإقرار الأمن والأمان، ونشر الطمأنينة بينهم، فالعقوبات الشرعية – كما قال ابن تيمية –: "هي رحمة من الله بعباده؛ فهي صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم، ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس بذنوبهم أن يقصد بذلك الإحسان إليهم، كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض"(٢). فقد شرعت العقوبات حفاظًا علىٰ الفضيلة، ومنعًا من انتشار الرزيلة، فمن مقاصد العقوبات

=

٣/ ١١٥١؛ فجعلهما واحداً فأخطأ، والأول صدوق حسن الحديث، والثاني ضعيف. وأخرجه النسائي في السنن الصغرىٰ: ٧/ ٦١ ح ٣٩٤٠، باب في حب النساء، وقال الألباني: صحيح، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(١) خواطر الشيخ الشعراوي: ٧/ ٣٩٢٠.

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، ٥/ ٥٢١، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

في الشريعة حفظ الضرورات الخمس التي اتفق عليها علماء الأصول والمقاصد، وهي: الدين والنفس والعقل والنسل أو العرض والمال، وصيانتها من أن تنتهك. ولو أمعنا النظر في كافة الحدود نجد أنها لا تتجاوز هذه الضرورات؛ فحد الردة شرع للمحافظة علىٰ الدين، والقصاص شرع للمحافظة علىٰ النفس، وحد الزنا شرع للمحافظة علىٰ النسل، وحد السرقة شرع للمحافظة علىٰ المال، وعقوبة شارب الخمر شرعت للمحافظة علىٰ العقل، وحد الحرابة شرع لحماية الناس والمجتمع من قطاع الطريق، ولأي مفسد في الأرض بأي طريق وبأي وسيلة.

فالعقوبات، مع ما يصاحبها من ألم، تحقق المصلحة للفرد والجماعة علىٰ السواء؛ لإشاعة الأمن والطمأنينة بين أفراد المجتمع، وأيضـًا لامتناع الأفراد من اقتراف الجرائم والمحظورات خوفـًا وحذراً من العقوبات. فلو عطلت العقوبات والحدود؛ لكان تضييع الضروريات الخمس، التي هي الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وبضياعها وتلفها خراب المجتمع، وضنك الحياة، ودمار العالم. ومن هنا يظهر أثر العمل الخيري في الإصلاح التربوي، وتقويم الانحرافات السلوكية عن طريق العقوبات الشرعية، واستئصال كافة الجرائم التي ترتكب والحرمات التي تنتهك، قال ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ –: "فكان من بعض حكمته – سبحانه – ورحمته أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم علىٰ بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة، أحكم – سبحانه – وجوه الزجر الرادعة عن هذه العقوبات غاية الإحكام، وشرعها علىٰ أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني في الردع؛ فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس؛ وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ولطفه وإحسانه

وعدله؛ لتزول النوائب، وتنقطع الأطماع عن التظالم والعداوات، ويقتنع كل إنسان بما آتاه مالكه وخالقه، فلا يطمع في استلاب غيره حقه"[(١)]. فلو عطلت العقوبات والحدود؛ لأدىٰ ذلك إلىٰ وقوع الأزمات الطاحنة، والكوارث المدمرة، والتناحر بين الطوائف والجماعات؛ بسبب انقسام الناس إلىٰ فريق العصاة المجترئين علىٰ حرمات الله، وفريق من الضعفة الخانعين، لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر؛ فيتمزق المجتمع شر ممزق، فكان من الحكمة أن جعل شدة العقاب مقابل شدة أثر الجريمة، وخطرها علىٰ المجتمع الإسلامي، أفرادًا وجماعات، ولنأخذ – علىٰ سبيل المثال – عقوبة السرقة وحكمة التشريع، قال – تعالىٰ –: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، "هذه هي التربية، إذن فالغرض الأساسي أن يحمي الإسلام أفراد المجتمع، فالذي لا يجد قُوتَه نساعده بالرأي وبالعلم والقدرة والقوة. والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم"[(٢)].

ولو لم تحرم السرقة لفشا السطو علىٰ البيوت، والاعتداء علىٰ الحرمات، وتحفيز الشاذين في المجتمع لكي يتعايشوا من النهب والسلب من الآخرين، وتظهر حكمة تشريع عقوبة السرقة، كما قال الشيخ الشعراوي – رحمه الله –: " والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة في قطع الأيدي، بل تريد أن تمنع قطع الأيادي. وإن ظل التشريع علىٰ الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد. والذين قالوا «قطع الأيدي فعل وحشي»، نقول لهم: إن يداً واحدة قطعت في السعودية

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ،٢/ ٧٣، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١هـ –١٩٩١م.

(٢) الشعراوي ٥/ ٣١١٨.

فامتنعت كل سرقة. وإذا كان القتل أنفىٰ للقتل؛ فالقطع أنفىٰ للقطع. أما عن مسألة التشويه التي يطنطنون بها، فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس، وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة «بوتوجاز» تفعل أكثر من ذلك. فلا تنظروا إلىٰ القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت في المجتمع. وإبطاء القائمين علىٰ الأمر للإجراءات التي يترتب عليها العقوبات ينسي المجتمع بشاعة الجريمة الأولىٰ، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة. لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة. وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق؛ سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة، ومقصد من مقاصد التربية، وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة في سياسة الحياة، فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرىٰ الإنسان من قطعت يده؛ فيمتنع عن التفكير في مثل ما آلت إليه هذه الحالة"[1].

(١) خواطر الشيخ الشعراوي، ٥/ ٣١٢٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام علىٰ من أرسله ربه رحمة للعالمين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

بعد هذه الجولة المتأنية والممتعة مع كتاب ربنا؛ للوقوف علىٰ دور العمل الخيري في الإصلاح النّفسي والتربوي من منظور قرآني، يتبين لنا عدة نتائج، منها:

* العمل الخيري يقلل من انتشار الجريمة، ويشيع الأمن، ويعلي من قيم الولاء والانتماء للوطن.

* يعمل علىٰ بقاء الإنسانية؛ فيسود العدل والإحسان والتكامل، وتشد أفراده روابط الأخوة وتشابك المصالح.

* يعمل علىٰ تماسك المجتمع، ونشر روح المحبة والألفة بين أفراده.

* العمل الخيري يتيح الفرصة لكافة أفراد المجتمع بالانخراط فيه، والمساهمة في بنائه الاجتماعي والاقتصادي.

* الاستفادة من جوانب التطبيقات العملية لأساليب تعديل السلوك المستنبطة من القرآن الكريم، من خلال وسائل التربية المختلفة، كالتربية بالوعظ والنصيحة، والعادة، والعقوبة.

* أن تسهم هذه الدراسة في زيادة الوعي الفردي والمجتمعي بأساليب التحفيز، ومراعاة الحس الوطني والأخوة الإيمانية وشيوع التعاون والتكافل بين

أفراد المجتمع.

* الدعوة إلىٰ العودة بالمجتمع إلىٰ القيم الخلقية، التي تحمي المجتمع، وتعصمه من الوقوع في الرذائل.

* العمل الخيري في المنظور الإسلامي مرتبط بعقيدة الإيمان بالله - تعالىٰ - ؛ مما يوفر له القوة المعنوية والطاقة الروحية اللازمة لدفع الفرد للقيام به طائعاً مختارًا.

* العمل الخيري نابع من إرادة حرة، ومبادرة ذاتية، دون إكراه من أي سلطة اجتماعية أو سياسية.

❁ ومن جملة التوصيات ما يأتي:

* نشر ثقافة العمل الخيري بإبراز الشخصيات الرائدة في هذا المجال والمؤسسة له.

* التعامل مع المنظمات الخيرية بنظرة إنسانية لا إدارية.

* إعطاء صلاحيات أكثر للمنظمات الخيرية في تغيير هيكلها التنظيمي في ضوء المتغيرات المختلفة.

* متابعة الحكومات لنتائج المؤسسات الخيرية، ومدىٰ الاستفادة التي نالتها الفئات المسؤولة من تلك المنظمات.

فهرس المصادر

* إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

* الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.

* أسباب النزول للواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الناشر: دار الميمان.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١هـ -١٩٩١م.

* أهداف التربية الإسلامية، المؤلف: د. ماجد عرسان الكيلاني الأردني، الناشر: دار القلم، الطبعة: الأولىٰ.

* البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

* البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ.

* بُغْيَة الباحث عن زوائد مسند الحارث، المؤلف: أبو محمد الحارث بن محمد

بن داهر التميمي البغدادي الخصيب، المعروف بابن أبي أسامة، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣ -١٩٩٢.

* التربية الإسلامية: أصولها ومنهجها ومعالمها، المؤلف: عاطف السيد، الناشر: حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

*التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

* تفسير الشعراوي – الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

* التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ.

* تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

* تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، المؤلف: الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١ م.

* تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة: الأولىٰ -١٤١٩ هـ.

* تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، المحقق: السيد ابن عبد

المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

* تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفىٰ المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولىٰ.

* التفسير القرآني للقرآن، المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

* التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د. وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ.

* التفسير الواضح، المؤلف: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة - ١٤١٣ هـ.

* التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولىٰ.

* التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ.

* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

* التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصغير، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٢ هـ -٢٠١١م.

* التيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري، الناشر: دار

الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

* الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ -١٩٦٤ م.

* الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

* الدر المنثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر – بيروت.

* دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، الملاحي، عبد الرحمن بن يوسف بن عيسىٰ، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٣م.

* الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، دار النشر: دار السلام – القاهرة، عام النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

* سنن ابن ماجه، ت: الأرنؤوط، المؤلف: ابن ماجة -وماجه اسم أبيه يزيد - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ -٢٠٠٩ م.

*سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لمحمد هيشور، الناشر: دار الوفاء،

الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٧م.

* صحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

* طريق الهداية مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، المؤلف: محمد يسري، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة: الثانية ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

* الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد، المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الناشر: المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥٦هـ.

* قواعد الأحكام في مصالح الأنام، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة.

* كتاب الأموال، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، الناشر: دار الفكر - بيروت.

* المجتبىٰ من السنن = السنن الصغرىٰ للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

* المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله - ﷺ -،

المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١ م.

* مسند أبي يعلىٰ، المؤلف: أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثُنىٰ بن يحيىٰ بن عيسىٰ بن هلال التميمي، الموصلي، ط: دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤.

* المعجم الوجيز، معجم اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية – مصر، ٢٠٠٩.

* المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

* معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

*مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة -١٤٢٠ هـ.

* من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، المؤلف: كمال الدين عبد الغني المرسي، الناشر: دار المعرفة الجامعية.

* موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الناشر: المكتبة العلمية، الطبعة: الثانية، مَزِيَدة مُنقحَة.